معالم على طريق الصحوة (١٥)





SORTING YOUR SELF

أحمد بن صالح الزهراني

دار الاندلس الخضراء

المقـدّمـة

الحمد لله، والصّلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

اشتغل كثير من النّاس بتصنيف النّاس، وتوزيع الألقاب، وتقسيم الفرق والأحزاب، ونسبة النّاس إليها، بعلم أحياناً، وبالظّنّ في أحيان كثيرة.

ولا شكّ أنّ تمييز أهل البدع والمنافقين أمر مرغوب فيه شرعاً حتّى يحذر النّاس منهم، وهو منهج السلف الصالح رحمهم الله، لكن ليس بهذا الشكل المحُدَث الّذي نعايشه الآن من خلوف ثقل عليهم العمل والدعوة والجهاد في سبيل الله، وسهل عليهم الكلام والصّياح، واكتفوا من أنفسهم بالتّصنيف، وليته كان على منهج أهل السنّة! إذاً لقلنا: ثغرة ولها من قام بها، لكنّ هؤلاء تجاوزوا فجعلوا يصنّفون النّاس لأتفه الأسباب، بل مجرّد الخطأ والمخالفة مسوّغ عند هؤلاء لتصنيف

الشّخص، حتّى لو كانت المخالفة في أمر يسوغ فيه الاجتهاد، أو للمخالف سلف في قوله، وهو أمر لم يخطر لأهل السنّة على بال.

وإنّما تبنّاه هؤلاء لمّا رأس فيهم جهّالهم، وتكلّم لهم أصاغرهم، فتنطّعوا وتعمّقوا وكان من عاقبة أمرهم أن دبّ الخلف والخلاف بين المسلمين، ففرّقوا بين الأخ وأخيه، والشّيخ وتلميذه.

ولعمرو الله لقد استغلهم المتربصون أيّما استغلال، ووظّفوهم لصالح أغراضهم في الصدّ عن سبيل الله، وتشويه سمعة الدّين وأهله، وذلك أمر يبصره من له بصيرة ونظر فيما يدور من حوله.

وشتّان بين فعالهم تلك وبين فعل السّلف الصّالح، فالفرق بيننا وبين السّلف فرق شاسع، بيننا وبينهم بون هائل طويل بطول ما يفصلنا عنهم من السنين والأيام، وقد أبان طرفاً منه ابن رجب رحمه الله في كتابه: (فضل علم السلف على علم الخلف).

فالسلف قلّ كلامهم وكثر عملهم، وأمّا الخلف

فكثر منهم الكلام، وقلّ منهم العمل، فنزعت البركة من أوقاتهم وأعمالهم.

وبالمثل فإنّ السلف الصالح رحمهم الله كانوا يبدأون في تصنيف أنفسهم وتحليلها، ومن ثمّ البدء في علاجها، ثمّ تصنيف قدراتها وإراداتها، فيعمل كلّ حسب ما خلق الله وأوجده في هذا الإنسان، وحسب ما أودعه الله وحباه له، فيستغلّ كل طاقة ومهارة وإبداع، فلا تعجب من أنّ تلك القرون المفضّلة حوت فيها من المبدعين في كل مجال ما لا يحصره كتاب.

وكلّما تشعّبت الثقافات وتفرّعت فروع العلم ومجالات العمل كلّما وُجِد التصنيف، ورأيت كيف يُستخدم في الإنتاج لا التّخريب، في البناء لا في الهدم.

وقد عنّ لي أن أكتب هذه الكلمات داعياً إخواني أن يشتغل كلّ بخاصة نفسه فيعمل على إصلاحها، فإنّ هذا الدّخن والله ما كان ولم يكن له أن يكون لولا قدر من الله سبق، ثمّ فساد أنفسنا، وما أوضع الشّيطان خلالنا من الأمراض النّفسيّة والعوائق الّتي يشغلنا بها عن البناء والإنتاج.

وداعياً نفسي وإخواني أن يعرف كلّ منّا قدر نفسه، فلا يضعها موضعاً يزري بها فيه، كما لا يحمّلها ما لا طاقة لها به فيكلّف نفسه ما لم يهبه الله له، ويتشبّع بما لم يُعط فيكون كلابس ثوبي زور.

بل يعرف قدراته، ويحدد قصده، وهدفه، والوسائل الملائمة له اللازمة للوصول إلى الغاية المنشودة، على أن يكون ذلك كله في سبيل نيل الغاية العظمى والهدف الأسمى والأنبل وهو رضا الله سبحانه وتعالى، وهو المسؤول جل شأنه أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه، وأن يجعل كلامنا حجة لنا لا علينا، والحمد لله في الأولى والآخرة.

وكتب

أحمد صالح الزهراني

ص. ب: ٢٢٩٤٠

جدة ٢١٤١٦

تمهيد

ليس التّصنيف[1] بدعاً من القول أو العمل، بل قد جاء في سنّة المصطفى ﷺ وسيرته مع أصحابه الكثير من ذلك.

فإن النبي ﷺ كان يعرف أصحابه وقدراتهم وطاقاتهم، فكان يضع كلّ واحد في الموضع الّذي ينتج

---

(١) قال في القاموس: (الصّنف بكسر الصّاد وفتحها: النّوع والضّرب، وجمعه أصناف وصنوف... وصنّفه تصنيفاً: جعله أصنافاً وميّز بعضها عن بعض) أ.هـ، القاموس المحيط للفيروز آبادي: ٤/٢٣٨.

كما يُقال: صنّف الكتاب: أي ألّفه، على التّشبيه، وعلى هذا يكون تعلّق اللّفظ بموضوع البحث، إمّا على أساس تصنيف قدرات النّفس وتمييز صفاتها الإيجابيّة عن السلّبية لاستثمار الأولى وعلاج الأخرى، أو على أساس وضع الشخص نفسه في الموضع المناسب له حسب أصناف النّاس وأنواعهم، وكلاهما منساق مع اللّفظ.

فيه أكثر، حتّى ولو كان على حساب جانب آخر.

فمثلاً: خصّص ﷺ بعض الصّحابة لكتابة الوحي، لأنّهم كتّاب ومهرة، وفيهم الأمانة على ما يكتبون، منهم عبدالله بن عمرو بن العاص، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهم.

وجعل بعض أصحابه لقيادة الجيوش؛ لمعرفتهم وخبراتهم الحربية، وحنكتهم في قيادة الحروب وتصريف شؤونها، ومن أشهرهم خالد بن الوليد، وأبو عبيدة عامر بن الجرّاح، وسعد بن أبي وقاص، رضي الله عنهم.

وبعض أصحابه كان متخصّصاً في الجانب الإعلامي: فالشّعر عليه حسّان بن ثابت، وعبدالله بن رواحة، وكعب بن مالك، وفي الخطابة ثابت بن قيس، وسعد بن عبادة، رضي الله عنهم.

وبعض أصحابه كان حافظاً، مواظباً، متفرغاً للعلم، لا يشغله عن ذلك مال ولا أهل، فهيّأه النبي ﷺ ليكون أميناً على السنّة جامعاً لها، وأشهرهم أبو هريرة رضي الله عنه.

ومنهم من أوتي الفقه والقدرة على الفتيا: كالخلفاء

الأربعة، وابن عمر، وابن عمرو، وابن عبّاس، ومعاذ ابن جبل، وأبي ذر، وابن مسعود، رضي الله عنهم.

ومنهم من جمع القرآن وكان حجّة فيه: كزيد بن ثابت الأنصاري الّذي وكل إليه أبوبكر وعثمان جمع القرآن، كما كان منهم المتمكّن في القراءة المتقن لها، حتّى حثّ النبي ﷺ على أن يُقرأ القرآن على قراءته كعبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

ومنهم من كان ذا فطنة، وأمانة، وقدرة على سياسة النّاس، فكان يولّيهم أعمال البلاد: منهم أبو هريرة، والعلاء بن الحضرمي، وعلي، رضي الله عنهم.

ومنهم ذو القدرة على الإقناع والحوار والدّعوة: كمصعب بن عمير، وعلي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، رضي الله عنهم[١].

---

(١) تلاحظ هنا أن الثلاثة من الشباب المتصفين بالعلم، ولم يكن يشغلهم أهل ولا مال، حتى إن معاذاً رضي الله عنه لم يكن جاوز الخامسة والعشرين من عمره، وليس المراد من وصفهم بذلك أن غيرهم لم يكن به تلك الأوصاف، غير أنه ثبت عن عمر رضي الله عنه قوله: من أراد الفقه فليأت معاذ بن جبل، انظر سير أعلام النبلاء: ١/ ٤٥٢.

ومنهم من كان ذا مكانة في المسلمين سناً، وقدراً، وعلماً، وإيماناً، فكانوا وزراءه وأهل استشارته، وهم خلفاؤه، رضي الله عنهم.

ومن كلامه ﷺ الذي يدل على ما سبق قوله:

«أرحم أمتي بأمتي أبوبكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»(١).

وقوله ﷺ:

«لا تؤذوا خالداً فإنه سيف من سيوف الله صبه الله على الكفار»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب، باب مناقب معاذ بن جبل وزيد بن ثابت، وابن ماجه في المقدمة، باب فضائل خباب، وأحمد: ٣/ ١٨٤، والحاكم: ٣/ ٤٢٢، وصححه الألباني في الصحيحة،ح ١٢٢٤.

(٢) أخرجه ابن حبان، ح٧٠٩١، والطبراني، ح٣٨٠١، والحاكم:٣/ ٢٩٨، عن عبدالله بن أبي أوفى، وهو صحيح.

وقوله أيضاً:

«من أراد أن يقرأ القرآن غضاً طرياً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»[١].

---

(١) أخرجه أحمد: ١/٧، ٤٤٥، وابن ماجه في المقدمة، باب فضائل عبدالله بن مسعود، والحاكم: ٢/٢٢٧، وصححه الألباني في الصحيحة، ح٢٣٠١.

وما ذكرناه عن النبي ﷺ قبل لا يفهم منه أن من وصفه النبي ﷺ بقدرة على أمر أو التفوق في صناعة يستلزم أن غيره من الصحابة كانوا خلواً من تلك الصفات، بل المراد أنهم يشتركون في أصل الصفة، وينفرد كل واحد في التفوق في جانب معين، وهذا لا يقدح في الأفضلية المطلقة لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم من جهة، ولا يلزم منه القدح أو لزوم النقص في غير المذكور بصفة معينة من جهة أخرى، فوصف النبي ﷺ لخالد بأنه سيف من سيوف الله صبه الله على الكفار، لا يلزم منه النقص في أبي بكر وعمر، بل تدل على تمرسه بفنون القتال والحرب، وخبرته الطويلة فيها، ولا شك أن للشيخين دراية كبيرة في ذلك، كما أن جميع الصحابة هم في الحقيقة سيوف صبهم الله على الكفار، غير أن تخصيص النبي ﷺ لخالد بهذا الوصف فيه دلالة على تميزه عن غيره، هذا أمر لا نشك فيه.

كيف والنبي ﷺ في معركة بدر نزل على مشورة غيره في اختيار الموقع الذي يفترض أن ينزل فيه جيش الصحابة، ولم يدل ذلك على لزوم نقص فيه ﷺ، فلكل صنعة أهلها وخبراؤها.

وأجمل منه حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«مثل ما بعثني الله من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية ـ أو طيبة ـ قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»[١].

قال البغوي رحمه الله:

(فالنبي ﷺ جعل مثل العالم مثل المطر، ومثل قلوب الناس فيه كمثل الأرض في قبول الماء، فشبه من تحمل العلم والحديث وتفقه فيه بالأرض الطيبة أصابها المطر فتنبت وانتفع بها الناس، وشبه من تحمله ولم

---

(١) أخرجه البخاري في العلم، باب فضل من عَلِم وعلَّم، ومسلم في الفضائل، باب بيان مثل ما بعث النبي ﷺ من الهدى والعلم.

يتفقهه بالأرض الصلبة التي لا تنبت ولكنها تمسك الماء فيأخذه الناس وينتفعون به)[١].

فكل من حامل العلم دون فقه وحامله الفقيه على خير، وأنت ترى أن كثيراً من المحدثين من أهل الرواية والنقل غير موصوفين بالفقه، ومع ذلك فلولا الله ثم ما تكبدوا من مشقة طلب الحديث، والسفر في ذلك، والسهر، ونسخ الكتب لضاع منا كثير من السنن.

وليس التصنيف الذاتي قائماً على مجرد الرغبة وحب المرء للعمل المعين، كلا، بل يجب أن يكون قادراً على الإبداع فيه والإنتاج به، بحيث لا يكون مجرد مقلد ومردد لعمل غيره، بل الإسلام يريد أن يكون كل مسلم أنموذجاً لوحده في إبداعاته وقدراته وعطاءاته، كالشعر مثلاً، فكلنا يحب الشعر ويتمنى أن ينظم الشعر، ولكن القليل منا يستطيع أن يكون شاعراً مبدعاً.

أقول هذا لأننا نرى كثيراً ممن يعجب بشخص ما يحبه ويحب أن يكون مثله، لكن قدراته لا تؤهله لأن

---

(١) شرح السنة: ١/ ٢٨٩.

يكون مثل محبوبه، فتضيع أيامه سدى في ما لا طائل وراءه، بل قد يصل به الحال إلى الإفساد في ما لا يحسن، وغاية ما يستطيع أن يكون نسخة مكررة ممن أحبه، وهذا خطأ.

ومن جميل هذا المعنى أن النبي ﷺ قال يوماً لزيد بن ثابت رضي الله عنه:

«أتحسن السريانية؟ قلت: لا، قال: فتعلمها؛ فإنه تأتينا كتب، قال: فتعلمتها، في سبعة عشر يوماً»[(١)].

فماذا نسمي هذا الصنيع منه ﷺ؟ لماذا لم يطلب ذلك من أبي بكر، أليس أحب إليه وأقرب من زيد؟ وكذلك الحال بالنسبة لعمر وعثمان وعلي، لماذا؟

والجواب أنه عرف قدرة زيد رضي الله عنه، وفطنته، وقدرته على الحفظ والتعلم أكثر من غيره[(٢)]،

---

(١) أخرجه أحمد: ٥/ ١٨٢، والطبراني، ح٤٩٢٨، والحاكم: ٣/ ٤٢٢، وابن حبان ح٧١٣٦.

(٢) ليس المقصود من ذلك أن أبابكر وعمر وعثمان وعلي لم يكونوا على قدرة زيد في الحفظ وسرعة التعلم، بل المقصود =

فطلب منه ذلك، أليس هذا تصنيفاً ومعرفة بقدرات المتعلم والمتلقي وأحواله؟

وانظر بارك الله فيك إلى أبي ذر رضي الله عنه، فقد أحب أن يتقرب إلى الله بأن يتولى ولاية للمسلمين، ونحن لا نشك في حسن نية أبي ذر الزاهد العابد الذي قال عنه ﷺ:

«ما أقلت الغبراء، ولا أظلت الخضراء، أصدقَ

= أن زيداً اتصف بصفات تجعله مهيئاً لتنفيذ أمر النبي ﷺ في تعلم السريانية أكثر من غيره، فهو شاب صغير، حتى إن النبي ﷺ أمره بهذا مقدمه المدينة وسنُّ زيد يومها إحدى عشرة سنة، وهذا الملحظ ميزه أبوبكر من زيد يوم أمره بجمع القرآن فقال له: أنت شاب عاقل لا نتهمك، فأين أُبيٌّ إذن وغيره؟ ألم يكونوا من حفاظ القرآن؟ بلى ولكن زيداً فاقهم في ذلك.

وشيء آخر أن ظروف زيد تسمح له بالتعلم أكثر من أبي بكر وعمر لانشغالهم بأمور أنفسهم من جهة وأمور الأمة مع النبي ﷺ، كما أن زيداً من أهل المدينة أي أنه مخالط لليهود فلا شك أنه يعرف بعض لهجاتهم، وهذا مشاهد ملموس تأثيره في سهولة تعلم اللغة، وعامل السرعة أمر مهم عند النبي ﷺ، وأنت ترى أن إتقان لغة أجنبية تحدثاً وقراءة وكتابة في نصف شهر أمر ليس بالهين.

لهجة من أبي ذر»[١].

أقول: لما جاء إلى النبي ﷺ يريد أن يتعبد الله بولاية للمسلمين، هل أجابه النبي ﷺ؟

انظر جوابه عليه الصلاة والسلام:

«يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها»[٢].

بين له ﷺ أنه لا يستطيع القيام بمهام الإمارة، وليس المراد بضعفه أنه ضعف حسي، فقد كان أبو ذر في مقدمة المجاهدين مع النبي ﷺ، وإنما المقصود عدم تكامل الصفات اللازمة لإتقان هذه الوظيفة وأداء الحق فيها.

قال الذهبي رحمه الله عند إيراده الحديث:

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب، باب مناقب أبي ذر، وابن ماجه في المقدمة، باب فضائل أبي ذر.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة، باب كراهة الإمارة من غير ضرورة.

(وقد قال النبي ﷺ لأبي ذر مع قوة أبي ذر في بدنه وشجاعته: «يا أبا ذر، إني أراك ضعيفاً»، فهذا محمول على ضعف الرأي، فإنه لو ولي مال يتيم لأنفقه كله في سبيل الخير، ولترك اليتيم فقيراً، فقد ذكرنا أنه كان لا يستجيز ادخار النقدين، والذي يتأمر على الناس يريد أن يكون فيه حلم ومداراة، وأبو ذر رضي الله عنه كانت فيه حدة فنصحه النبي ﷺ)(١).

هذا هو التصنيف المنشود الذي نريده ونتمناه، أن يضع كل واحد منا نفسه في المكان الصحيح، ولا يتكلف ما لا يحسن، فإن:

«المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»(٢).

وقد تلقى التابعون وأتباعهم هذا الدرس عن الصحابة رضي الله عنهم جيداً، ووعوه، وطبقوه، فقد

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٧٥.
(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب المتشبع بما لم ينل، ومسلم في اللباس، باب النهي عن التزوير في اللباس، عن عائشة رضي الله عنها.

اهتم كثير منهم بجوانب معينة برزوا فيها، وكانوا حجة فيها مع تقصيرهم عن الكمال في غيرها، وأنا أذكر لك عدة أمثلة تفي بمقصودنا في مثل هذا المقام:

١ـ عاصم بن بهدلة بن أبي النجود:

الإمام الكبير، مقرىء العصر، كما قال عنه الذهبي، كان حجة في القرآن، حتى قيل فيه: ما رأيت أحداً أقرأ من عاصم، وقيل: كان رأساً في القرآن، وقال الذهبي: كان عاصم ثبتاً في القراءة.

ومع ذلك كان عاصم صدوقاً في الحديث، ليس هو من أهل هذا الشأن كما في القرآن، حتى قال الدارقطني: في حفظه شيء، وقال النسائي: ليس بحافظ: أي للحديث[١].

٢ـ محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي المدني:

العلامة الأخباري، كان حجة في المغازي والسيرة، حتى قيل فيه: هو أعلم الناس بها، وقيل: لا

(١) انظر ترجمته سير أعلام النبلاء: ٥/ ٢٦٠.

يزال في الناس علم ما عاش محمد بن إسحاق، وقيل: كان في المغازي علامة.

ومع هذا فقد أمسك بعض العلماء عن الاحتجاج بحديثه، وقال الذهبي: وأما في أحاديث الأحكام فينحط حديثه إلى رتبة الحسن إلا فيما شذ فيه فإنه يعتبر منكراً[١].

٣ـ الإمام أبو حنيفة رحمه الله:

النعمان بن ثابت، فقيه الملة، عالم العراق، كما قال الذهبي.

قال ابن المبارك: أبو حنيفة أفقه الناس، وقال عنه الشافعي: الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة.

ومع هذا فإنه رحمه الله في الحديث ليس بذاك، حتى قال فيه ابن المبارك نفسه:

كان أبو حنيفة مسكيناً في الحديث.

(١) المرجع السابق: ٧/ ٤١.

٤ـ عبدالله بن عبدالعزيز بن عبدالله بن عبدالله بن عمر بن الخطاب:

الإمام، العابد، الزاهد، الواعظ، مشهور بالعبادة والوعظ، حتى كان الرشيد يهابه ويبكي منه، وكان يحتسب حتى على الخلفاء، ثقة صدوق، ومع ذلك لم يكن في العلم من المكثرين، ولم يشتهر به، إنما اشتهر بالعبادة والنسك(١).

٥ـ مرة الطيب:

ويقال له: مرة الخير؛ لكثرة عبادته وخيره وعلمه، وهو مرة بن شراحيل الهمداني الكوفي، من أجلّة التابعين، وثقه الأئمة، وقيل: إنه سجد لله حتى أكل التراب جبهته.

ومع ذلك قال الذهبي:

(ما كان هذا الولي يكاد يتفرغ لنشر العلم، ولهذا لم تكثر روايته، وهل يراد من العلم إلا ثمرته)(٢).

---

(١) المرجع السابق: ٨/ ٣٧٣.
(٢) المرجع السابق: ٤/ ٧٥.

وهذا قليل، بل لو تتبعت سير العلماء لوجدت الغالبية العظمى اشتهروا بجانب معين على حساب غيره، وهذا لأنهم عرفوا أين يضعون أنفسهم رحمهم الله جميعاً.

ومن هذا ما ذكره ابن عبدالبر أن عبدالله العمري هذا كتب إلى مالك يحضه على الانفراد والعبادة كما فعل هو، فكتب إليه مالك رحمه الله:

(إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرب رجل فتح له في الصلاة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد، فنشر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير)[1].

هذا هو الفقه بعينه، وقال الذهبي رحمه الله مدافعاً عن ضعف عاصم بن بهدلة:

(وما زال في كل وقت يكون العالم إماماً في فن

---

(١) المرجع السابق: ٨/ ١١٤.

مقصراً في فنون، وكذلك كان صاحبه حفص بن سليمان ثبتاً في القراءة واهياً في الحديث، وكان الأعمش بخلافه ثبتاً في الحديث ليناً في الحروف. . .)[١].

رحم الله السلف، وهدانا لسلوك طرائقهم، وانتهاج مناهجهم، إنه سميع مجيب.

(١) المرجع السابق: ٥/ ٢٦٠.

أولاً: صنف نيتك

وهذه الخطوة هي الأصل الذي ستبني عليه كل ما بعده، فهي أساس البناء ونقطة الانطلاق، وهي التي تحكم أعمالك، وتميز الحق من الباطل فيها، كما أنها هي التي تحدد الأولويات في حياتك وسيرك، فما هي حقيقة النية؟

المقصود بالنية السببُ الباعث لك على عمل ما، وهي في اللغة: القصد.

فسائل نفسك دوماً: ما هي نيتك؟ ومن تقصد بأعمالك؟

وبدءاً نقول: إن الأعمال التي يعملها الإنسان في حياته الدنيا قسمان:

الأول: عبادات شرعها الله تعالى يتقرب بها العبد

إليه، لولا الشرع ما كانت عبادة، أو بمعنى آخر فإنها على صفاتها الشرعية لا يفعلها إلا من أراد التعبد بها، ولا تفعل من قبل العادة البشرية، كالصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، وغيرها من أنواع العبادات التي يبتغى بها وجه الله وكرامته.

والقسم الثاني: عادات يفعلها الإنسان بمحض فطرته وحاجته الدنيوية قبل ورود الشرع، كالأكل، والشرب، والنكاح، والبيع، والشراء، والسفر، ونحوه.

وعليه فإن القسم الثاني لا يحتاج إلى نية لثبات صحته أو جوازه، وإنما يحتاج النية فقط في ترتب الأجر عليه.

وأما القسم الأول فإنه يحتاج إلى النية في عدة اتجاهات، فلا بد من نية لتمييزه من العادات، كالذي يغتسل، قد يكون لرفع جنابة، فهذه عبادة، وقد يكون قصده النظافة فهذه عبادة، فلا بد من تحديد قصده بالغسل.

ثم هو يحتاج النية؛ لترتب الثواب عليها، وهذه مركبة من نيتين أو قصدين:

الأول: إرادة وجه الله تعالى، وهو الإخلاص،

والثاني: طلب الأجر في الآخرة لا الدنيا، وهو الحسبة:

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾(١).

وعليه فإن أول خطوة في سيرك إلى الله أن تحدد نيتك وقصدك: هل الذي يحكم أعمالك كلها بقسميها هو إرادة الله تعالى والدار الآخرة؟ أم أنك تريد أن تعمل أعمال الآخرة للآخرة وأعمال الدنيا للدنيا؟

أما الأولى: فإنها درجة الأنبياء والصالحين، وهي درجة أولي العزم من المؤمنين الذين عرفوا أن الدار دار فناء لا بقاء، وأنها دار مرور وعبور لا دار قرار، فطوعوا حياتهم كلهالله، عباداتهم وعاداتهم، كما قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾(٢).

هذا هو معنى الآية، ليس معنى ذلك أن المؤمن لا يعمل للدنيا، كلا المؤمن يعمل للآخرة والدنيا، لكن كل

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٤٥).
(٢) سورة الأنعام: الآية (١٦٢).

ذلك القصد فيه لله، فهو يصلي لله، ويصوم لله، ويزكي ويحج لله، كما أنه يأكل ويشرب يريد وجه الله، وإذا تاجر يريد وجه الله، وإذا عمل عملاً دنيوياً ابتغى به وجه الله، بل إنه يأتي أهله فيكون له أجر إذا أراد به وجه الله.

فعن أبي ذر أن النبي ﷺ قال:

«.. وفي بُضع أحدكم صدقة، قلنا: يا رسول الله، يأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في غير حل أكان عليه وزر؟ قالوا: بلى، قال: فكذلك لو وضعها في حلٍ له أجر»[1].

وفي رواية عند الإمام أحمد:

«فتحتسبون الشر ولا تحتسبون الخير»[2].

وفي النهاية يكون مماته لله رب العالمين، أي يكون موته شهادة في سبيل الله، أو يموت وهو يرجو الله في موتته فيكون له أجر.

---

(١) أصله عند مسلم في الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على أنواع متعددة من البر، عن أبي ذر.

(٢) مسند أحمد: ٥/ ١٥٤، ١٦٧.

هذه هي حياة المؤمن من أهل هذه المرتبة العالية، فتكون حياتهم وأوقاتهم، صحوهم ومنامهم كله أجر، هذا هو والله الاستثمار الحقيقي: استغلال لكل لحظة ودقيقة من عمر الإنسان لا تضيع هباء، ولم لا والله تعالى يسر السبل المعينة وقبل من العامل مجرد النية إن عجز عن العمل، حتى كان معاذ رضي الله عنه يقول:

(إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي)[١].

أي أنوي الخير وأرجو الأجر من الله بنومتي، لأني أستعين بها على النشاط للطاعة والعبادة وأداء الحقوق، كما أنوي الخير وأرجو الأجر بصحوي وعملي فيه الخيرات.

وفي سبيل تصحيح النية، وتحقيق هذه المقامات تعب الصالحون، وتنافس المتنافسون، حتى قال أحد الصالحين:

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن، ومسلم في الإمارة، باب النهي عن طلب الإمارة، عن أبي بردة عن أبي موسى رضي الله عنه.

(أعز شيء في الدنيا: الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنه ينبت على لون آخر)[١].

وقال جعفر بن حيان رحمه الله:

(ملاك هذه الأعمال: النيات، فإن الرجل يبلغ بنيته ما لا يبلغ بعمله)[٢].

وعن زبيد رحمه الله قال:

(يسرني أن يكون لي في كل شيء نية، حتى في الأكل والنوم)[٣].

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول:

(تعوذوا بالله من خشوع النفاق، قيل: ما هو؟ قال: أن يرى الجسدُ خاشعاً والقلبُ ليس بخاشع)[٤].

وأما المرتبة الثانية فهي حال أكثر الناس، فالواحد

---

(١) مدارج السالكين: ٢/٩٦، المقصود بأعز: أي أندر وأقل، أو أصعب في الحصول عليه.

(٢) الزهد، لابن المبارك، ص٦٣.

(٣) المرجع السابق، ص٦٤.

(٤) شرح السنة: ١٤/٣٢٧.

منهم يعمل بكافة العبادات التي أوجبها الله عليه، وهو مع ذلك يعمل أعمال الدنيا ويبتغي من فضل الله لكن نيته في ذلك إصلاح دنياه.

فإن كنت من أهل المرتبة الثانية فلا تثريب عليك إذا التزمت بشروط السلامة وهي كما يلي:

أولاً: لا بد لك من الموازنة:

فإن الاشتغال بالدنيا كثيراً ما يؤدي إلى إهمال العمل للآخرة، وهذا العمل المطلوب للآخرة حده الأدنى هو العمل بالفرائض وترك المناهي، وبذا تكون قد حققت السلامة، يقول الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[١].

قال الحسن البصري رحمه الله:

(ذكر الله: جميع الفرائض)[٢].

وهذا الحد الأدنى دل عليه ما رواه الإمام البخاري

---

(١) سورة المنافقون: الآية (٩).
(٢) تفسير القرطبي: ١٨/ ٨٤.

رحمه الله، عن طلحة بن عبيدالله رضي الله عنه قال:

«جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد، ثائر الرأس، يسمع دوي صوته ولا يفقه ما يقول حتى دنا، فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: خمس صلوات في اليوم والليلة، فقال: هل علي غيره؟ قال: لا، إلا أن تطوع، قال رسول الله ﷺ: وصيام رمضان، قال: هل علي غيره؟ قال: لا، إلا أن تطوع، قال: وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، قال: هل علي غيرها؟ قال: لا، إلا أن تطوع، قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص، قال رسول الله ﷺ: أفلح إن صدق»(١).

وهذا يدل على أن الإتيان بالفرائض وترك المنهيات هو الحد الأدنى للفلاح، فلا يجوز بحال أن يطغى الاشتغال بالدنيا على صاحبه فيؤدي به إلى ترك بعض الفرائض كالتساهل في الصلاة أو الصوم، أو النقص من الزكاة، أو الوقوع في بعض المنهيات في سبيل الدنيا، كالتعامل

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب الزكاة من الإسلام.

في الربا، أو الغش، أو نحو ذلك من المعاملات المحرمة.

ومن التوازن المطلوب أيضاً أن لا يلهيك المال وجمعه عن رعاية الأولاد، وأصحاب الحقوق، كالوالدين والأرحام، فإن لكلٍ حق فأعط كل ذي حق حقه.

ثانياً: لا بد أن يكون عملك الدنيوي مضبوطاً بضابط الكتاب والسنة:

فلا تعمل في عمل محرم[1]، ولا تُعِن على عمل محرم[2]، ولا تستثمر مالك في عمل محرم؛ لأن ذلك سيؤدي إلى اختلال الميزان ورجحان الخسارة على الربح - أعني خسارة الآخرة -، ثم إن العمل في الحرام سبب لرد الصدقة والزكاة فلا يقبلها الله من صاحبها، وسبب أيضاً في عدم استجابة الدعاء، وكفى بهذه قاصمة؛ إذ معناه انقطاع الصلة بالله، فيكون آكل الحرام

---

(١) فلا تكُ موظفاً في بنك ربوي مثلاً.

(٢) المقصود به العمل غير المباشر كالدعاية للمحرم مثلاً أو تعهدات صيانة أدوات التقاط البث المباشر.

والبهائم سواء يرزقه الله كما يرزقها، إلا أن البهائم لا حساب عليها وأما ذاك فمرهون بذنبه، ومقطوع الصلة بربه تعالى.

قال ﷺ:

«إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً.. ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث، أغبر، يمد يديه إلى السماء: يارب، يارب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب له»[1].

ثالثاً: احذر أن يكون مالك عوناً للكفر أو حرباً على الإسلام:

وهذا يتحقق بعدة صور:

فمن ذلك تفضيل السلع التي ينتجها الكفار، وعدم دعم الإنتاج المسلم.

ومنه استخدام العمالة الكافرة، والإعراض عن

---

(١) أخرج مسلم في الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

العمالة المسلمة.

ومنه الاتجار في سلع دعائية لصالح العدو الكافر.

وهو أمر مقصود للشارع الحكيم، ومن ذلك أن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه استعمل كاتباً نصرانياً، فقدم على عمر الفاروق رضي الله عنه فأعجب عمر ما رأى من حفظ الكاتب، فقال لأبي موسى الأشعري: قل لكاتبك يقرأ لنا كتاباً - وكانوا في المسجد - فقال: إنه نصراني لا يدخل المسجد، فانتهره عمر رضي الله عنه وهمَّ به، وقال: أما وجدت في أهل الإسلام من يكتب لك، لا تكرموهم إذ أهانهم الله، ولا تدنوهم إذ أقصاهم الله، ولا تأتمنوهم إذ خونهم الله[1].

رابعاً: احرص على تعلم الأحكام الشرعية التي تخص عملك أو أعمالك:

وعليك بكثرة الاتصال بالعلماء وطلاب العلم، واستشارتهم فيما تعزم عليه من أعمال، فقد يرون ما لا

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي: ١٠/ ٢١٦.

ترى، قبل أن تقدم على أمر فيه مأثم فلا تستطيع المواصلة فيه إلا بخسارة، ولن تكلفك الاستشارة شيئاً.

هل لك قوة وجلد على العبادة؟

وأما إذا كنت من طلاب الآخرة، فإن الطرق المؤدية إليها كثيرة لا حصر لها، ويجب أن تعرف قدراتك، وتصنف مهاراتك، وما وهبك الله تعالى من الطاقات، فعليك أن تسبر غور نفسك، وتغوص في أعماقها، وتعرضها على فكرك ومعرفتك بها، واسأل نفسك:

هل لك قوة وجلد على العبادة؟

العبادات كثيرة، فإن لم تستطع أن تحيط بها فالزم باباً منها، واحتسب على الله أن يكون مدخلك إلى الجنة:

١ - **فمن أهم العبادات وأجلها الصلاة**، فهي صلة العبد بربه، وهي الحبل الذي يستمسك به من أراد النجاة، وهي باب كل خير، وتركها مفتاح كل شر، فإن العبد ما دام يصلي فأمره قريب، وعاقبته بإذن الله إلى خير، وإن

كان تاركاً لها فأمره بعيد، وعاقبته إن لم يتداركه الله برحمة إلى وبال وخسارة ما بعدها خسارة.

وقد عظَّم الله أمر الصلاة جداً، وذكرُها في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ لا يحصى:

قال تعالى:

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[3].

---

(١) سورة البقرة: الآية (٤٥).
(٢) سورة البقرة: الآية (٢٣٨).
(٣) سورة النساء: الآية (١٠٣).

وقال تعالى:

﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾[2].

وقال ﷺ:

«العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر»[3].

وقال أيضاً:

«بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة»[4].

---

(١) سورة مريم: الآية (٥٩).

(٢) سورة الماعون: الآية (٤ ـ ٥).

(٣) أخرجه أحمد: ٢/٣٤٦، والترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة، وابن ماجه، أبواب إقامة الصلاة، باب ما جاء فيمن ترك الصلاة، ح ١٠٧٩، والنسائي: كتاب الصلاة، باب الحكم في تارك الصلاة.

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على =

وقال أيضاً في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه مرفوعاً:

«خمس صلوات افترضهن الله تعالى، من أحسن وضوءهن، وصلاهن لوقتهن، فأتم ركوعهن وخشوعهن، كان له على الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يفعل فليس له على الله عهد، إن شاء غفر له وإن شاء عذبه»(١).

وقد ذكر النبي ﷺ الصلاة فقال:

«من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهاناً، وحشر يوم القيامة مع فرعون وهامان وقارون وأبي بن خلف»(٢).

= تارك الصلاة، عن جابر رضي الله عنهما.

(١) أخرجه أحمد: ٥/٣١٧، وأبو داود في الصلاة، باب المحافظة على الصلوات، والنسائي في الصلاة، باب المحافظة على الصلوات، وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب ما جاء في إقامة الصلوات الخمس والمحافظة عليهن.

(٢) أخرجه أحمد: ٢/١٦٩، والدارمي، كتاب الرقائق، باب في المحافظة على الصلاة: ٢/٧٥٧، والطبراني في الأوسط، ح ١٧٦٧، وهو صحيح.

وتارك الصلاة للعلماء في كفره كفراً أكبر قولان، مما يدل على خطورة ترك الصلاة، الأمر الذي يتنافى مع فعل أغلب الناس اليوم، نسأل الله لنا ولهم الهداية.

فإذا كنت من أهل الصلاة فعظِّم هذه الشعيرة، **فحافظ أولاً أشد المحافظة على المكتوبات**، وأدِّها كما افترضها عليك، بوضوئها، وفي وقتها، مع المسلمين جماعة، قال ﷺ:

«صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»[1].

ووعد ﷺ من حافظ عليها جماعة مبكراً لها بالبراءة من النفاق ومن النار، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ:

«من صلى لله أربعين يوماً في جماعة يدرك التكبيرة الأولى كتبت له براءتان: براءة من النار، وبراءة من

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان، باب صلاة الجماعة، ومسلم في المساجد، باب فضل صلاة الجماعة، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

النفاق»[١].

وأما إحسان الوضوء لها فجاء فيه قوله ﷺ:

«ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط»[٢].

وقال ﷺ:

«الطُّهور شطر الإيمان»[٣].

وخرج يوماً على أصحابه فرأى رجلاً منهم لم يحسن أن يوصل الماء إلى عقبه، فنادى فيهم:

---

(١) أخرجه الترمذي في الأذان، باب ما جاء في فضل التكبيرة الأولى، وأحمد: ٣/ ١٥٥، عن أنس، وأخرجه ابن ماجه في المساجد، باب صلاة العشاء والفجر في جماعة، عن عمر رضي الله عنه، وصححه الألباني في بحث قيم، السلسلة الصحيحة، ح٢٦٥٢.

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة، باب فضل الوضوء.

«ويل للأعقاب من النار» ثلاثاً[١].

وقد مثَّل النبي ﷺ للصلوات الخمس بأحسن مثلٍ فقال:

«أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يُبقَى من درنه شيئاً، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا»[٢].

ثم بعد ذلك **تدرّج في زيادة عدد ركعاتك في اليوم والليلة، فحافظ على السنن الرواتب وخصوصاً سنة الفجر**، فإن النبي ﷺ يقول:

«ما من عبد مسلم يصلي لله كل يوم اثنتي عشرة ركعة تطوعاً غير فريضة إلا بنى الله له بيتاً في الجنة»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في العلم، باب من رفع صوته بالعلم، ومسلم في الطهارة، باب وجوب غسل الرجلين، والأعقاب: جمع عقب، وهو مؤخرة القدم.

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة، ومسلم في المساجد، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب فضل السنن الراتبة =

ثم حافظ على صلاة الوتر، وأقلها ركعة، فإن النبي ﷺ لم يكن يدعها ولا ركعتي الفجر سفراً ولا حضراً، وقال:

«**إن الله زادكم صلاة فحافظوا عليها وهي الوتر**»[١].

وكان ﷺ يقول:

«**يا أهل القرآن أوتروا**»[٢].

وإذا استطعت أن تقوم في الليل فتصلي فيه ما قدر لك، ثم توتر في آخره فهو أفضل، وهو فعله ﷺ.

وقد امتدح الله من هذا فعله فقال:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ

= قبل الفرائض، عن أم حبيبة رضي الله عنها.

(١) أخرجه أبوداود في أبواب الوتر، باب استحباب الوتر، والترمذي في كتاب الوتر، باب ما جاء في فضل الوتر، وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب ما جاء في الوتر، وانظر الإرواء للألباني، ح٤٢٣.

(٢) أخرجه أبوداود في الصلاة، باب استحباب الوتر، والنسائي في قيام الليل، باب الوتر، وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب الوتر، وانظر ما قبله.

كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[١].

وإن لم تستطع فصلّ وترْك قبل أن تنام، وهي وصية النبي ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه كما قال:

«أوصاني خليلي بثلاث: صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام»[٢].

ثم بعد ذلك عليك بصلاة الضحى، فإنها صلاة الأوابين، كما ثبت عنه ﷺ، وأفضل وقتها إذا اشتد الضحى وحرارة الشمس، وهي من ركعتين إلى ثمان، قال ﷺ:

«يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزىء من ذلك ركعتان

---

(١) سورة الذاريات: الآية (١٥ ـ ١٨).
(٢) أخرجه البخاري في الصوم، باب صيام البيض، ومسلم في صلاة المسافرين، باب استحباب صلاة الضحى.

يركعهما من الضحى»(١).

ثم بعد ذلك **إن استطعت أن تكون مثل بلال رضي الله عنه فلتهنك الجنة.** قال النبي ﷺ لبلال يوماً:

«حدثني بأرجى عمل عملته عندك منفعة في الإسلام، فإني قد سمعت الليلة خشفة نعليك بين يدي في الجنة، فقال: ما عملت عملاً في الإسلام أرجى عندي منفعة أني لم أتطهر طهوراً تاماً في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت لربي ما كتب لي أن أصلي»(٢).

وفي حديث بريدة رضي الله عنه أنه ﷺ قال له:

«يا بلال بم سبقتني إلى الجنة؟ ما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامي، فقال بلال: يا رسول الله، ما أذَّنْت قط إلا صليت ركعتين، وما أصابني حدث قط

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب استحباب صلاة الضحى، عن أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التهجد، باب فضل الطهور بالليل والنهار، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل بلال رضي الله عنه، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

إلا توضأت، ورأيت أنَّ لله عليَّ ركعتين فأركعهما، قال رسول الله ﷺ: بهما»[١].

وإن شئت فكن رفيق النبي ﷺ في الجنة، فقد قال النبي ﷺ لربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه: سل، فقال: أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: أو غير ذلك؟ فقال: هو ذاك، فقال رسول الله ﷺ:

«فأعني على نفسك بكثرة السجود»[٢].

فإن لم يكن لك على الصلاة جهد فعليك بالصوم، فهو من أجل القربات وأعظم الحسنات، حتى إن الله تعالى ليقول:

«كل عمل ابن آدم له، إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»[٣].

---

(١) أخرجه أحمد: ٥/ ٣٥٤، والترمذي في المناقب، باب قصر عظيم لعمر في الجنة، والحاكم: ١/ ٣١٣، ووافقه الذهبي.
(٢) أخرجه مسلم في الصلاة، باب فضل السجود.
(٣) أخرجه البخاري في الصوم، باب هل يقول: إني صائم إن شئت، ومسلم في الصيام، باب فضل الصيام، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال ﷺ:

«لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»(١).

فأحْسِن صوم رمضان، وأقبل فيه على العبادة والذكر، واجتنب المحرمات، واحرص فيه على تلاوة القرآن، والإكثار من الذكر والصدقة؛ لأن ذلك من حسن وتمام صوم الشهر المكرم، وقد قال ﷺ:

«من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»(٢).

ثم احرص بعد ذلك على صيام النفل: صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وهي أيام البيض، الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر.

وكذلك صوم يومي الاثنين والخميس، فإن

---

(١) المرجع السابق.
(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، باب صوم رمضان من الإيمان، ومسلم في صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الأعمال تعرض على الله فيهما، فاحرص أن تكون صائماً فيهما، كما كان يحرص ﷺ[١].

فإذا أعانك الله واستطعت أن تزيد على ذلك فافعل، كالإكثار من الصوم في الشهور المستحبة كشهر محرم.

قال ﷺ:

«أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم»[٢].

وكذلك شهر شعبان، قالت عائشة رضي الله عنها:

«لم يكن رسول الله ﷺ في الشهر من السنة أكثر صياماً منه في شعبان»[٣].

وأما إن بلّغك الله منازل الصفوة فكن مثل نبي الله داود، يصوم يوماً ويفطر يوماً، فإنك إن كتبت من الصائمين

---

(١) أخرجه الترمذي في الصيام، باب ما جاء في صوم الاثنين والخميس، وأصله عند مسلم في البر والصلة، باب النهي عن الشحناء.

(٢) أخرجه مسلم في الصيام، باب فضل صوم المحرم، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الصوم، باب صوم شعبان، ومسلم في الصيام، باب صيام النبي ﷺ في غير رمضان.

دخلت من مدخلهم، كما ثبت عنه ﷺ أنه قال:

«إن بالجنة باباً يقال له الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم يقال: أين الصائمون؟ فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد»[١].

فإن حباك الله صحة ومالاً فأكثر من الحج والعمرة، ففيهما أجر عظيم، وهما من أسباب دخول الجنة، كما أن الحج من أركان الإسلام الخمسة فلا يجوز التباطؤ في القيام به، قال ﷺ:

«بني الإسلام على خمسٍ: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم، باب الريان للصائمين، ومسلم في الصيام، باب فضل الصيام، عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، باب قول النبي ﷺ: بني الإسلام على خمس، ومسلم في الإيمان، باب بيان أركان الإسلام، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

وكان عمر رضي الله عنه يقول:

«من أطاق الحج فلم يحج فسواء عليه مات يهودياً أو نصرانياً»(١).

وفي الصحيح عنه ﷺ:

«تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد»(٢).

وقال ﷺ عن ربه تعالى:

«إن عبداً صححت له جسمه، ووسعت له في المعيشة، يمضي عليه خمسة أعوام لا يَفِدُ إليَّ لمحروم»(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٣٩٥.

(٢) أخرجه أحمد: ١/ ١٢٥، والترمذي في الحج، باب ما جاء في ثواب الحج والعمرة، والنسائي في مناسك الحج، باب فضل المتابعة بين الحج والعمرة، عن ابن مسعود، ورواه ابن ماجه في المناسك، باب المتابعة بين الحج والعمرة، عن عمر، ورواه النسائي أيضاً عن ابن عباس، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة، ح١٢٠٠.

(٣) أخرجه ابن حبان، ح٣٧٠٣، وعبدالرزاق في المصنف، ح ٨٨٢٦، والطبراني في الأوسط، ح٤٨٦ ولفظه «أربعة أعوام»، =

ومن مات في الحج محرماً فله فضل، جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال:

«بينما رجل واقف مع رسول الله ﷺ بعرفة إذ وقع من راحلته فأقصعته، فقال رسول الله ﷺ: اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبين، ولا تحنطوه، ولا تخمروا رأسه، فإن الله يبعثه يوم القيامة ملبياً»(١).

ومن العبادات العظيمة ذكر الله تعالى، فقد جاءت فضائله المشهورة في الكتاب والسنة، قال تعالى:

﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾(٢).

وقال تعالى:

﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾(٣).

= وقال: لم يرفعه عن سفيان إلا عبدالرزاق، ورواه البيهقي أيضاً، ح١٠٣٩٢، وقال: روي عن أبي هريرة بإسناد ضعيف.

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، باب الحنوط للميت.

(٢) سورة البقرة: الآية (١٥٢).

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٩٠ ـ ١٩١).

وقال تعالى عن نبيه يونس عليه السلام:

﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[١].

وأثنى سبحانه على الملائكة فقال:

﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾[٢].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ:

«ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والوَرِق[٣]، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم، فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى، قال: ذكر الله تعالى»[٤].

---

(١) سورة الصافات: الآية (١٤٣ - ١٤٤).

(٢) سورة الأنبياء: الآية (٢٠).

(٣) أي الفضة.

(٤) أخرجه أحمد: ٥/ ١٩٥، والترمذي في الدعوات، ح٣٣٧٤، وابن ماجه في الأدب، باب فضل الذكر، والحاكم: ١/ ٤٩٦، وصححه ووافقه الذهبي.

كما جاء رجل للنبي ﷺ فقال له: إن شرائع الإسلام قد كثرت فأخبرنا بباب نتمسك به جامع، فقال له النبي ﷺ:

«لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله»(١).

ومن خير الذكر قراءة القرآن الكريم، كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال ﷺ:

«اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»(٢).

وقال ﷺ أيضاً:

«من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف، فتلك ثلاثون»(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات، باب ٤، وأحمد: ٤/ ١٨٨، عن عبدالله بن بسر رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن وثوابه.
(٣) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ =

والمنهج في قراءته حسب المستطاع، كما قال تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾[١].

وقال ﷺ لعبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما:

«اقرأ القرآن في كل شهر، اقرأه في خمس وعشرين، اقرأه في خمس عشرة، اقرأه في عشر، اقرأه في سبع، لا يفقهه من يقرؤه في أقل من ثلاث»[٢].

وفي سنن الترمذي، عن عبدالله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال له:

«اقرأ القرآن في أربعين»[٣].

= حرفاً من القرآن، عن ابن مسعود، وانظر السلسلة الصحيحة، ح٦٦٠.

(١) سورة المزمل: الآية (٢٠).

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب في كم يقرأ القرآن، ومسلم في الصيام، باب النهي عن صوم الدهر، عن عبدالله ابن عمرو رضي الله عنهما مطولاً، وانظر السلسلة الصحيحة، ح ١٥١٣.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب القراءات، باب ١٣، وأبوداود، =

ومن خير أصناف الذكر أيضاً: الاستغفار، فقد كان النبي ﷺ يكثر منه، ويقول:

«إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»(١).

وهو سبب لتفريج الكربات وتنزل الرحمات:

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾(٢).

والنبي ﷺ يبين أهمية الذكر ويسر أمره بقوله:

«كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»(٣).

= كتاب الصلاة، باب تحزيب القرآن، بلفظ آخر، وانظر السلسلة الصحيحة، ح١٥١٢.

(١) أخرجه البخاري في الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة.

(٢) سورة نوح: الآية (١٠ ـ ١٢).

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات، باب فضل التسبيح، ومسلم =

وأنواع الذكر كثيرة، والأذكار النبوية هي السياج المنيع، والحصن الحصين الذي يقي صاحبه مزالق الشيطان ووساوس إبليس اللعين، فلذلك شرعها الله للعبد في كل أحيانه وأحواله وتقلباته، فمن أخذ بها وتمسك فقد فاز فوزاً عظيماً.

وفي ميدان العبادة عرف كثيرون[١] فمنهم:

١- الربيع بن خثيم:

الإمام، القدوة، العابد، أبو يزيد الثوري الكوفي، كما قال عنه الذهبي[٢].

كان ابن مسعود رضي الله عنه إذا رآه يقول: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾، يا أبا يزيد، لو رآك رسول الله ﷺ لأحبك[٣].

= في الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) الصحابة كلهم كانوا أهل عبادة، وسأذكر نماذج من بعدهم، حتى لا يتعلل أحد بالصحبة أو النبوة.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٤/٢٥٨.

(٣) حلية الأولياء: ٢/١٠٦.

وقال أحد جلسائه: جالست الربيع عشر سنين، فما سمعته يسأل عن شيء من أمر الدنيا إلا مرتين، قال مرة: والدتك حية؟ وقال مرة: كم لكم مسجداً؟[١].

وقال آخر: بتُّ عند الربيع ذات ليلة فقام يصلي، فمر بهذه الآية: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[٢] فمكث ليلته حتى أصبح ما جاوز هذه الآية[٣].

وكان قد أصابه الفالج فيخرج إلى الصلاة يُهادى بين رجلين، فقيل له: قد رُخِّص لك، فيقول: إنه كما تقولون، غير أني أسمع (حي على الفلاح) فمن سمع منكم ينادى (حي على الفلاح) فليجبه، ولو زحفاً، ولو حبواً[٤].

وقيل عنه: كان الربيع إذا سجد كأنه ثوب مطروح

---

(١) المرجع السابق: ٢/ ١١٠.
(٢) سورة الجاثية: الآية (٢١).
(٣) حلية الأولياء: ٢/ ١١٢.
(٤) المرجع السابق: ٢/ ١١٣.

فتجيء العصافير فتقع عليه[١].

كما روي أن أمه كانت تقول له: يا ربيع ألا تنام؟ فيقول: يا أمه، من جنّ عليه الليل وهو يخاف البيات حق له أن لا ينام[٢].

٢- أبو مسلم الخولاني:

عبدالله بن ثوب، سيد التابعين، وزاهد العصر، كما قال الذهبي رحمه الله[٣].

قال أبو نعيم: المتخلي عن الهموم والكرب.

وقال رحمه الله عن نفسه:

لو قيل لي: إن جهنم تسعر غداً ما استطعت أن أزيد في عملي[٤].

وأبو مسلم هذا هو الذي رُمي في النار فلم تضره

---

(١) المرجع السابق: ٢/ ١١٤.
(٢) المرجع السابق.
(٣) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٧.
(٤) حلية الأولياء: ٢/ ١٢٤.

بإذن الله، فعن شرحبيل الخولاني:

بينا الأسود العنسي باليمن، فأرسل إلى أبي مسلم فقال له: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، قال: فتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع، قال: فأمر بنار عظيمة فأُجِّجت وطرح فيها أبو مسلم فلم تضره، فأخرجه الأسود من اليمن، فقدم المدينة، وقابله عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقبَّل بين عينيه، وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمة محمد ﷺ من فعل به كما فعل بإبراهيم عليه السلام[١].

٣- مُطرّف بن عبدالله بن الشخير:

قال أبو نعيم: المتعبد الشِّكِّير، كان لنفسه مذلاً، ولذكر الله مجلاً.

قال مطرف رحمه الله مخبراً عن نفسه:

لقد كان خوف النار يحول بيني وبين أن أسأل الله الجنة[٢].

---

(١) المرجع السابق: ٢/ ١٢٩.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٤/ ١٩٤.

وقال رحمه الله:

ما يسرني أني كذبت كذبة وأن لي الدنيا وما فيها[١].

وقال سليمان بن حرب:

كان مطرف مجاب الدعوة، وقال لرجل: إن كنت كاذباً فأرنا به، فمات الرجل مكانه[٢].

وهؤلاء السادة الأخيار وغيرهم من العباد الذين عرفهم التاريخ الإسلامي لا بد أنهم وجدوا في العبادة لذتها التي لا يعرفها غيرهم، فإن العبادة في أصلها حب في غاية طاقاته، وأرفع مراتبه، وإذا بلغ الحب من المحب غايته أداه إلى التأله، أي التعبد.

وليس معنى هذا أن باقي الأبواب التي تمر بنا ليست عبادات، بل كل ما يتقرب به العبد إلى الله فهو عبادة، أي أنه يفعل ما يفعل عبادة، أي ذلاً ومحبة وخضوعاً له،

---

(١) المرجع السابق: ٤/ ١٩٥.
(٢) المرجع السابق.

وإنما لأن هذه الأعمال التي اختصت باسم العبادة هي أفعال يحبها الله، ولا يفعلها إلا عابد محب لربه، فالإنفاق مثلاً قد يفعله الكريم من جود نفسه، والمقاتل قد يقاتل حمية وشجاعة.

أما الصلاة فهي صلة العبد بربه لا يفعلها إلا محب لله تعالى يريد بقاء صلته بربه، تجده وَلِهاً مترقباً أن يقف بين يدي من يحبه ذلاً وخضوعاً، وهل ألذ من الارتماء بين يدي من تحب قد أحرقتك سبحات المحبة، وتخللت أنوارها أغشية قلبك، فتصلِّ له وكأنما تنظر إليه، وتسأله الجنة كأنك تنظر إليها، وتستعيذ من النار وكأنما تصطلي بنارها.

وكذلك الصوم، هو قمة المحبة، إن الله تعالى لم يضع في العبد أقوى من محبة الجنس الآخر، ومحبة الطعام والشراب، فهي أقوى الغرائز وأشدها تحكماً في تصرفات العبد، فإذا ترك ملاذَّه تلك لله تعالى دلَّ على إخلاص تلك المحبة، وإفراده ربه، وكأنما يقول: يا رب، أنا إن أحببت غيرك فبحبك أحبها ولك أريدها، أحب من أجلك، وأدع لأجلك، فأنت في قلبي الأول

فلا شي قبلك، والآخر فلا شيء بعدك، والظاهر فلا شيء فوقك، والباطن فلا شيء دونك، وكل لذة هي لك، فإن طعمت فإنما حباً فيما أحللته لي، وإن نكحت فإنما قربة أتقرب بها إليك، فإن أعطيتني شكرت، وإن منعتني صبرت، فإنما نحن بك وإليك.

ثم تأتي قمة العبادة إذا أراد الحبيب أن لا يفارق محبوبه، فيستديم ذكره، والمحب الوَلِه يذكِّره كل شيء بمحبوبه، حتى إنه لتراه يضطرب لسماع اسم كاسمه، كما قال المجنون:

وداع دعا نحن بالخيف من منى

فهيج أطراب الفؤاد ولا يدري

دعا باسم ليلى غيرها فكأنما

أطار بليلى طائراً كان في صدري

وهذا في مخلوقة من مخلوقات، فكيف بمحبوب هو فوق كل محبوب، ومعبود هو فوق كل معبود، فإذا قام العبد ذكره، وإذا نام ذكره، فلا يفتر لسانه من ذكر من

يحبه أشد الحب وأعظم حتى لا يزال لسانه رطباً بذكره، وعقله مشغول بمحابه وإرضائه، هذا هو العبد الذي حقق عبوديته، فأي لذة وأي نعيم يعيش فيه العباد؟!

وآية ما قلته أنك تجد من سيما هؤلاء العباد أن الواحد منهم لا يكاد يأنس بإنس أبداً مهما كان قربه منه، وتجد الواحد منهم يميل إلى الانفراد بنفسه؛ إذ يجد لذة المناجاة، ويعكر عليه صفوها وجودُ الغير بحضرته، وإذا ما خالط الناس سها بفكره وشرد بذهنه، ولا يزال متأففاً حتى ينعزل.

وهذا المعنى هو الذي أشار إليه الصحابي الجليل عبدالله بن عمر رضي الله عنه، حينما قال له أحدهم: لا تغزو؟ فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت».

ولزم الفضيل بن عياض العابد المشهور الحرمين حتى سمي عابد الحرمين، فلامه ابن المبارك على ترك

الجهاد بقصيدته المشهورة:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا

لعلمت أنك في العبادة تلعب

فبكى الفضيل وقال: صدق أبو عبدالرحمن ونصح.

نعم، لقد صدق ابن المبارك، لكن الفضيل وجد في مجاورة الحرم والانقطاع إلى العبادة ما أنساه وشغله عن كل شيء.

ونحن ما بغض إلينا العبادة وأثقلها في قلوبنا إلا ما ملأناها به من الشواغل والمحابِّ والملاذ التي صارت شغلاً لنا، فصار الواحد منا يقف بين يدي ربه مشغول البال، منصرف الفكر، فكيف بالله عليك نعرف ما كان فيه القوم من النعيم؟! وكيف نستلذ بعباداتنا كما كانوا يغرقون في لذتها هم؟! وكيف نعايش ما كانوا يعايشون من الأنس بالله والوحشة من الخلق؟! تلك درجات لا يبلغها السالك إلا إذا عرف الأسباب التي تعلقوا بها هم، والسبل التي سلكوها:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها

إن السفينة لا تمشي على اليبس

هل لك قوة وجلد على العلم؟

طلب العلم من أفضل القربات، ومن أرفع المقامات، كيف وقد جاء فيه من الفضائل ما لا يحصى، وهل خير ممن يرث المصطفى ﷺ؟

قال أبو ذر رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ:

«إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[١].

ومَنْ أفضل ممن قرن الله شهادتهم بشهادته:

---

(١) أخرجه أحمد: ٥/١٩٦، وأبوداود في أول كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، وابن ماجه في المقدمة، باب فضل العلماء وغيرهم بألفاظ متقاربة، وله شواهد يرتقي بها إلى الصحة.

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ ﴾[١].

ومَنْ أفضل ممن حصر الله مخافته فيهم:

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[٢].

والعلماء هم القائمون بالحجة على العباد في كل عصر، كما أن الأنبياء هم الشهود على أممهم، ويكفي أنهم أمناء الله على دينه، والقائمون على حفظه وإبلاغه للعالمين.

وفضائل العلم لا تخفى، والذي يهمنا هنا أن نذكر أن عهد الشمول قد ولى، تلك حقيقة يجب أن يقنع بها من أفنى عمره يرجو إحاطة العلوم[٣]، وأن يحويها بين

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٨).
(٢) سورة فاطر: الآية (٢٨).
(٣) المقصود هنا أن يرغب الطالب أن يكون مبرزاً ومكتمل الأهلية في كل تخصص، وليس المقصود أن يكون محيطاً بأصول كل علم والمهم منه، فهذا لازم لطالب العلم وتركه نقص، فلا بد للفقيه من علم النحو واللغة ما يستقيم به =

جنبيه، وهذا ليس بلازم، بل لكل عصر ظروفه ونتاجه الذي يفرض نفسه.

فالواجب أن يحدد كل طالب علم فنّاً يحبه ويميل إليه، مع القدرة على الإبداع فيه، هذا هو الأولى، فإن الأعمال قد قصرت عن الإحاطة بفروع العلوم، والهمم تدنَّت فلا يستطيع الواحد منا ذلك البتة، فيكفي من كل

= فقهه، ولا بد للنحوي من الفقه ما يقيم به عبادته، ولا بد للمفسرين من الحديث ما يصحح له روايته، ولا بد للمحدث من السير وعلم الجرح والتعديل ما يقوم به مروياته، ولا بد للجميع من وعلم التوحيد والعقائد والفِرَق ما يعصمهم من الزيغ وسلوك طرق أهل البدع، وقد يبرز العالم في فن أو اثنين لكن من الصعوبة أن يكون حجة في الفقه والتوحيد والفرق والنحو والبلاغة والتفسير والحديث، بحيث يصبح في درجة المجتهد في كل هذه الفنون.

أقول: والواقع خير شاهد، فأين هو العالم الذي نستطيع أن نعتبره حجة في كل فن كما كان شيخ الإسلام ابن تيمية مثلاً؟ بل إننا نعرف أن بعض من يشار إليهم بالعلم والتبحر فيه، بل ويتصدر للفتوى، يرد عليه صغار الطلبة في بديهيات النحو والحديث مثلاً، وهذا الذي ذكرته أكد عليه ابن الجوزي كثيراً في كتابه صيد الخاطر في أكثر من موضع فراجعه إن شئت.

علم ما يقيم به طالب العلم صُلْبه، ويختار من التخصص ما يُتْخِمُ به نفسه ويتضلع منه حتى يخرج الريُّ من أظفاره، حتى يغدو مرابطاً على ثغرة من ثغور الإسلام فيصبح حجة فيها، إما القرآن وعلومه، وإما الحديث وأصوله، وإما الفقه، وإما العقيدة والتوحيد، وهكذا.. أما أن يريد أن يصبح حجة الله في كل فن، فذلك كالمُنْبتِّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.

وهذا ليس بدعاً من القول، فقد كان أصحاب النبي ﷺ أصحاب تخصص، فكذلك كن أنت، فمجالات طلب الآخرة في طلب العلم كثيرة:

١ـ فمنها حفظ القرآن الكريم وتحفيظه وتفسيره:

وأهل القرآن هم أهل الله وخاصته، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ.

وقد قال ﷺ:

«خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[١].

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن، عن عثمان رضي الله عنه.

وقال ﷺ:

«تعلموا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شافعاً لأصحابه»[١].

وحث على مدارسته وحفظه فقال:

«تعاهدوا كتاب الله، فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفلتاً من الإبل في عقلها»[٢].

كما حث على ترتيله وتحسين الصوت به:

«ليس مِنّا من لم يتغن بالقرآن»[٣].

وإن من أفضل العلم تعلم كتاب الله، فإن شرف العلم من شرف المعلوم، والمعلوم هنا هو كلام الله

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن، عن أبي أمامة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، عن أبي موسى الأشعري.
(٣) أخرجه أحمد: ١/ ١٧٥، وأبوداود في الصلاة، باب استحباب الترتيل في القراءة، وابن ماجه في الإقامة، باب في حسن الصوت بالقرآن، والحاكم: ١/ ٥٦٩، وصححه ووافقه الذهبي.

سبحانه وتعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حميد مجيد.

ومن دعاء النبي ﷺ لابن عباس:

«اللهم علِّمه الكتاب»[(١)].

فإن كنت ممن منَّ الله عليه بقوة الحفظ فعليك بكتاب الله حفظاً وتلاوة، ولا يفوتنك أخذ القراءات السبعية والعشرية إن استطعت، فإن ذلك من موعود الله بحفظه القرآن، وأصحاب هذا الشأن في زماننا قلة.

وأحكام التجويد فاعتن بها، واحرص على حفظ متون هذا العلم، ثم إذا تمكنت منه فعلِّمْه للناس، اجلس لطلاب العلم ليحفظوا على يديك كتاب الله، كما فُعِل بك فافعل بهم، وارج في ذلك كله وجه الله، وهنيئاً لمن كانت أوقاته وهمه بين آيات القرآن حفظاً، ومدارسة، وتلاوة.

---

(١) أخرجه البخاري في العلم، باب قول النبي ﷺ: «اللهم علمه الكتاب»، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ولا تكن كالأميين الذين لا يفقهون ما يقرأون، بل عليك بالتفسير، فخذ منه بحظ وافر، فقد ذم الله اليهود وشبههم بالحمار الذي يحمل على ظهره كتب العلم وهو لا يعرف ما تحويه، فلا تكن مثلهم فيصيبك ما أصابهم.

وكن كرسول الله ﷺ، الذي قالت عنه عائشة رضي الله عنها:

«كان خلقه القرآن»[1].

فليكن خلقك القرآن، ولا تُزْر بنفسك فتغشى مجالس تضع من قدرك، ووقِّر كلام الله الذي يتردد بين جنبيك، ولا يخالفنَّ قِيلك فِعالك، فكم من قارىء للقرآن والقرآن يلعنه!

وارفق بمن تعلمهم الكتاب، ولا تكن سبباً في نفرتهم عن كتاب الله، فتكون من الصادِّين عن ذكر الله، واصبر عليهم، وصابر في أن يتقنوا القرآن على يديك، فوالله لذلك خير لك مما حملته الأرض.

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل.

وعليك بالتواضع، فإن أقبح ما اتصف به ذو علم: الكبر.

ولا تطفىء النور الذي حباك الله بمعصية تنسيك ما حفظت، وإن فعلت فلا تؤخر التوبة، فكل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون.

وقد كان القرآن محط اهتمام من السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم، وممن جرد نفسه للقرآن:

١ - أبو عبدالرحمن السلمي:

عبدالله بن حبيب بن ربيعة الكوفي، الإمام، العلم، مقرىء الكوفة، قرأ القرآن، وجَّوده، ومهر فيه، وعرض على عثمان، وعلي، وابن مسعود، رضي الله عنهم.

قال أبو إسحاق:

كان أبو عبدالرحمن السلمي يقرىء الناس في المسجد الأعظم أربعين سنة.

وروي عنه قوله:

أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا

عشر آيات لم يجاوزوهن حتى يعملوا ما فيهن، فكنا نتعلم القرآن والعمل به.

وجاء مرة إلى منزله فوجد هدايا بعث بها عمرو بن حريث لأنه عَلَّم ولده القرآن، فقال: ردوها، إنا لا نأخذ على كتاب الله أجراً(١).

وقال إسماعيل بن أبي خالد:

كان أبو عبدالرحمن يعلمنا القرآن خمس آيات خمس آيات(٢).

٢ - عاصم بن بهدلة بن أبي النجود:

أبوبكر الأسدي، مولاهم الكوفي، الإمام الكبير، مقرىء العصر، قرأ القرآن على أبي عبدالرحمن السلمي، وزر بن حبيش، وغيرهم.

---

(١) اختلف الأئمة في أخذ الأجر على تعليم القرآن بين مجيز بإطلاق، ومانع بإطلاق، ومفصل بين المحتاج من غيره، والأحوط إن كان العبد مستغنياً عن الأجرة أن لا يأخذ، وأما إن كان محتاجاً لها فلا بأس، وعلى هذا استقرت مذاهب الأئمة.

(٢) انظر ترجمته في السير: ٤/ ٢٦٧ ـ ٢٧٢.

قال أبو إسحاق:

ما رأيت أحداً قط أفصح من عاصم، إذا تكلم كاد يدخله خيلاء.

وقال العجلي:

عاصم صاحب سنة وقراءة، وكان رأساً في القرآن.

وقال سلمة بن عاصم:

كان عاصم ذا أدب، ونسك، وفصاحة، وصوت حسن.

وقال أبوبكر:

كان عاصم إذا صلَّى ينتصب كأنه عود، وكان يكون يوم الجمعة في المسجد إلى العصر، وكان عابداً خيراً يصلي أبداً، ربما أتى حاجة فإذا رأى مسجداً قال: مِلْ بنا فإن حاجتنا لا تفوت، ثم يدخل فيصلي.

توفي رحمه الله سنة سبع وعشرين ومئة[١].

---

(١) انظر ترجمته في السير: ٥/٢٥٦ ـ ٢٦١.

ومن فروع العلم: علم الحديث.

وناهيك به من علم، لا يبتغى به إلا وجه الكريم تعالى، وكان يسمى بضاعة المفاليس، نعم فإنه من العلم الذي لا يبحث عنه إلا من أراد الله والدار الآخرة، بحر لا ساحل له، وجواد يستعصي على كل فارس إلا المبرزين، لكن أهل الحديث هم أصحاب السبق، لله درهم، وعليه شكرهم، فهم المعنيون عند كثير من أهل العلم في حديث رسول الله ﷺ بقوله:

«لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم خذلان من خذلهم حتى تقوم الساعة»(١).

فالطائفة المنصورة، والعصابة القائمة بالحق حتى قيام الساعة هم أهل الحديث، أصحاب السنة، فهم أولى الناس بالحق، وهم أقرب الناس إليه، وهم أتبع الناس لرسول الله ﷺ، وهو مروي عن الإمام أحمد رضي الله عنه، فقد روى ابن حبان عن الإمام أحمد أنه مر على

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب ٢٨، عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بلفظ مقارب، ومسلم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: **«لا تزال طائفة من أمتي على الحق»**.

نفر من أصحاب الحديث وهم يعرضون كتاباً لهم فقال:

(ما أحسب هؤلاء إلا ممن قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم خذلان من خذلهم حتى تقوم الساعة**»)(١).

قال أحمد بن سنان القطان:

(ليس في الدنيا مبتدع إلا وهو يبغض أهل الحديث)(٢).

وقال الفاروق عمر رضي الله عنه:

(سيأتي أناس يجادلونكم بشبهات القرآن، خذوهم بالسنة، فإن أصحاب السنة أعلم بكتاب الله)(٣).

وكان الإمام الشافعي رحمه الله يقول:

(لولا أهل المحابر لخطبت الزنادقة على المنابر)(٤).

---

(١) المجروحين، لابن حبان: ١/٨٩، والحديث تقدم في الحاشية السابقة.

(٢) معرفة علوم الحديث ص ٤.

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: ١/١٢٣.

(٤) قواعد التحديث، للقاسمي، ص ٤٨.

وقال الإمام النووي رحمه الله:

(إن من أهم العلوم تحقيق معرفة الأحاديث النبويات، أعني معرفة متونها صحيحها وحسنها وضعيفها وبقية أنواعها المعروفات، ودليل ذلك أن شرعنا مبني على الكتاب العزيز والسنن المرويات، وعلى السنن مدار أكثر الأحكام الفقهيات، فإن أكثر الآيات الفروعيات مجملات وبيانها في السنن المحكمات، فثبت بما ذكرناه: أن الاشتغال بالحديث من أجلّ العلوم الراجحات، وأفضل أنواع الخير وآكد القربات، وكيف لا يكون كذلك وهو مشتمل على بيان حال أفضل المخلوقات، عليه من الله الكريم أفضل الصلوات والسلام والبركات)[1].

وعلم الحديث فرعان كبيران:

الأول: علم الحديث دراية، ويسمى أيضاً أصول الحديث أو مصطلح الحديث.

والمراد به القواعد والضوابط التي يميز بها الحديث الصحيح من الضعيف، وأحوال المتون من حيث الشذوذ

---

(١) قواعد التحديث، ص ٤٢.

والنكارة، وأحوال السند كذلك، وأحوال الرواة الثقات منهم والضعفاء وأخبارهم.

الثاني: علم الحديث رواية.

وهو دراسة الأحاديث المنقولة عن رسول الله ﷺ، وتطبيق أصول الحديث فيها، ومن ثم معرفة معاني ألفاظها، وما يندرج فيها من الأحكام الشرعية والأدب والعقائد، ونحو ذلك.

وينبغي لطالب العلم أن لا يعجل بدراسة الحديث حتى يأخذ حظه من القرآن واللغة العربية والتوحيد، ثم يبدأ نفسه بحفظ ما يستطيع من الأحاديث الثابتة عن رسول الله ﷺ، وفي مقدمة ذلك الأربعين النووية مع شرح ابن رجب، ثم الصحيحان، ثم الأربعة، ثم غيرها.

ولا يهلك طالب الحديث نفسه بشغله عن المتن بالسند، وبالنقد عن الاعتبار، فإن ثمرة الاشتغال بالحديث الاطلاع على سنن رسول الله ﷺ وأيامه وأحواله وأخباره؛ لنعيشها، ولنطبقها، ونستن بسنته، ونحكِّم شرعته، فإذا شغلنا بالسند عن المتن وبالنقد عن العمل فإنها خسارة وأي خسارة، لكن كل ذلك بحسبه،

وقد جعل الله لكل شيء قدراً.

فعليك بالحديث إن كان بك ميل إليه، واتسع صدرك لطلبه والصبر والجلد في تحصيله، فإن بلغك الله بشيء منه فليهنك العلم.

ومن أهل الحديث أكتفي بعَلَم واحد فقط:

الإمام البخاري: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، أبو عبدالله، أمير المؤمنين في الحديث، صاحب أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى.

قال عن نفسه:

أُلهمت حفظ الحديث وأنا في الكتاب، وأنا ابن عشر سنين أو أقل، فلما طعنت في ستة عشرة سنة كنت قد حفظت كتب ابن المبارك ووكيع.

وقال عن نفسه:

كتبت عن ألف وثمانين رجلاً ليس فيهم إلا صاحب حديث.

وقال عن كتابه الصحيح:

أخرجت هذا الكتاب من زهاء ستمائة حديث، صنفته في ستمائة عشرة سنة.

قال الفريابي:

كنت مع محمد بن إسماعيل بمنزله ذات ليلة، فأحصيت عليه أنه قام وأسرج يستذكر أشياء يعلقها في ليلة ثمان عشرة مرة.

وقال محمد بن سلام فيه:

كلما دخل عليّ هذا الصبي تحيَّرت وألبس علي أمر الحديث وغيره، ولا أزال خائفاً ما لم يخرج.

وقال الفلاس:

حديث لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث.

وقالوا:

لم ير محمد بن إسماعيل مثل نفسه.

وقال أحمد بن حنبل:

ما أخرجت خراسان مثل محمد بن إسماعيل[١].

---

(١) انظر ترجمته في السير: ١٢/٣٩١، وما بعدها.

وبعد، أترى هذا حصل للبخاري لولا اجتهاده وإقباله على الحديث، وتفرغه له، وبيعه الغالي والرخيص في سبيل تحصيله؟

وصدق ابن حبان رحمه الله حين قال في أهل الحديث:

(ومن أحق بهذا التأويل من قوم فارقوا الأهل والأوطان، وقنعوا بالكسر والأطمار في طلب السنن والآثار، وطلب الحديث والأخبار، المتبعون لآثار السلف من الماضين، والسالكون نهج محجة الصالحين، ورد الكذب عن رسول رب العالمين)[١].

ومنها أيضاً أصول العقائد والتوحيد:

وهو من أشرف العلوم وأجلها، إذ أن الفِرَق والبدع قد كثرت في الأمة، وأخذ المنافقون يلبسون على الناس دينهم، فيجب على طالب العلم أن يتحصن بتعلم التوحيد والعقيدة وأصول البدع والفرق المخالفة حتى لا

(١) المجروحين: ١/ ٨٩، وانظر معرفة علوم الحديث، للحاكم، ص ٢ ـ ٣.

يقع في البدعة، وقد قال عمر بن الخطاب:

(تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية).

وقال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[1].

ومن تخصص في هذا الفن، واستطاع التعمق فيه، وصرف الساعات في إتقانه ومعرفة مداخله ومخارجه وألفاظه، وما دخله من علوم المتكلمين والفلاسفة، وحججهم وأباطيلهم؛ للذب عن حوزة الإسلام وعقائد السنة فهو من الرباط، وعلى ثغرة مكشوفة من ثغور الإسلام والمسلمين، وأجره على الله، وله في أئمة الإسلام قدوة وأسوة ومثالاً يحتذى.

(وأذكر لك هنا من عجزت النساء أن يلدن مثله: شيخ الإسلام والمسلمين: الإمام، الأوحد، فريد عصره، ونسيج وحده، أحمد بن عبدالحليم بن

---

(١) سورة الأنعام: الآية (٥٥).

عبدالسلام بن تيمية.

هذا الرجل الذي نذر نفسه للذب عن دين الله، ومقارعة أعداء الله بشتى مللهم ومشاربهم، رد على اليهود والنصارى، وعلى الجهمية والرافضة والمعتزلة والفلاسفة والمرجئة والخوارج والصوفية، ولم يترك بدعة إلا فندها وبين عوار أهلها رحمه الله تعالى، ولم يأت بعده من فهم الإسلام وشرائعه وعقائده كما فهمها هذا الإمام السيد، مما شهد له به الأعداء قبل الأصدقاء.

قال عنه ابن سيد الناس:

(كاد يستوعب الآثار والسنن حفظاً، إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته، أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر الحديث فهو صاحب علمه وروايته، أو حاضر بالنحل والملل لم ير أوسع من نحلته في ذلك ولا أرفع من رايته، برز في كل فن على أبناء جنسه، ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه).

وقال ابن عبدالهادي:

(كان رحمه الله سيفاً مسلولاً على المخالفين،

وشجى في حلوق أهل الأهواء والمبتدعين، وإماماً قائماً بالحق ونصرة الدين).

توفي رحمه الله سنة ٧٢٨هـ.

ومن فروع العلم علم الشريعة والفقه والأحكام الفرعية:

وقد قال ﷺ:

«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[١].

ومن أراد دراسة الشريعة والفقه وأحكامه فعليه بالسُّلَّم الذي رقاه من قبله حتى وصلوا إلى ما أرادوا، وأما القفز والتعجل فتلك آفة مهلكة، ومضيعة للوقت في غير طائل.

فأول ما يبدأ فيه المتفقه الأعمال الواجبة عليه كالطهارة والصلاة ونحوها، فيتعلمها؛ لأن علمها واجب عليه، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

---

(١) أخرجه البخاري في العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، ومسلم في الزكاة، باب النهي عن المسألة، عن معاوية رضي الله عنه.

ثم بعد ذلك يأخذ الفقه على يد الفقهاء على أحد المذاهب الفقهية، مع الحرص على التؤدة والأناة في التفقه والأخذ.

ولا ينفرد طالب العلم بنفسه، وعليه التزام المذهب في التعلم، مع الحرص على الدليل عند إرادة العمل ما لم يتبين له، ولا يلزمه شرعاً أن يبحث عن مخالفة المذاهب الأخرى، فإن عرفها عرضاً وأخبر بها فعليه أن يتحرى السنة قدر الإمكان، فإن كان فهمه لم يقوَ ولم يتمرس بعد على الترجيح فعليه التزام المذهب الذي يأخذ عنه العلم، حتى تتسع مداركه ويقوى على النظر في كتب الخلاف العالي.

وما أدى بنا إلى الفوضى الفقهية في هذه الأيام إلا مخالفتنا لمذاهب العلماء في أخذ العلم، فترى الواحد منا يتكلم في البيع، وهو لم يتقن بعد أحكام الطهارة والصلاة.

ويطيل النظر في المغني والمجموع ونحوها ولم ينظر قط في العمدة أو الوجيز، كما يطلب الفقه من فتح

الباري وشرح ابن رجب ولا يعير كتب الفقه أي اهتمام، وهذه طريقة ربما تخرج مثقفين، وأما الفقهاء فليس هذا منبعهم، وما هكذا كان مخرجهم.

ومن أراد المنهج الأسمى الصحيح فليسأل عالماً من علماء وقته الفقهاء عن طريقته، وتدرجه في طلب العلم اليسير، ويتعلم منه منهجه.

فإن لمست من نفسك ميلاً إلى الفقه، ووجدت فيها أهلية لتعلمه فدونك الفقه، وتعرض للعلماء، وخذ منهم كما أخذوا، فإن الأمة بحاجة إلى الفقيه الألمعي، والمفتي الأحوذي، الذي لا تنطلي عليه محدثات الأمور، ولا تلاعبات المتلاعبين بالشرع، الذين يحلُّون ما حرَّم الله، ويحرِّمون ما أحلَّه، بحجج من الشرع لا تدل على مقاصدهم، ولا تسعفهم في نيل مآربهم، لكن عَدَمَ الفقيه المتيقظ سوَّل لهم أن يرتعوا في الحرمات، ويبطلوا الشرائع المهمات في عماية من المسلمين وجهل من ولاة الأمور؛ حتى انتشرت الشرور والبدع، وأُبطل كثير من الشرائع بفتوى من ينتسب إلى العلم والفقه والفتوى.

لم يعرف تاريخ الفقه الإسلامي فقيهاً كأبي حنيفة، الإمام، النعمان بن ثابت:

هذا العلامة الذي اشتهر بالفطنة والفقه والمهارة فيه حتى بلغ من ذلك عجباً.

قال الذهبي:

الإمام، فقيه الملة... عني بطلب الآثار، وأما الفقه والتدقيق في الرأي وغوامضه فإليه المنتهى.

قيل لمالك: رأيت أبا حنيفة؟ قال: نعم، رأيت رجلاً لو كلَّمك في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته.

وكان يسمى الوتد لكثرة صلاته، وكان طويل الصمت، كثير العقل.

وقال يحيى بن سعيد القطان:

ما سمعنا أحسن من رأي أبي حنيفة.

وقال حفص بن غياث:

كلام أبي حنيفة في الفقه أدق من الشعر، لا يعيبه إلا الجاهل.

وقال ابن المبارك:

أبو حنيفة أفقه الناس.

وقال الشافعي:

الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة.

وقد ضربه المنصور على أن يلي القضاء فأبى رحمه الله وَرَعاً.

ثم قال الذهبي:

الإمامة في الفقه ودقائقه مسلمة إلى هذا الإمام، وهذا أمر لا شك فيه[1].

ومنها أيضاً علم النحو والصرف وفقه اللغة:

وهذه العلوم وإن كانت ليست شرعاً فإنها أدوات يضبط بها العلم الشرعي، واحتساب الأجر في تعلمها وتعليمها يؤجر عليه المسلم، وقد جعلها العلماء من شروط الاجتهاد، على أن التوسع فيها يقي المسلمين ما يدخله أهل البدع والزنادقة من جهة اللغة.

---

(١) انظر ترجمته في السير: ٦/ ٣٩٠ ـ ٤٠٣.

من ذلك أن الجهمية أوّلت الاستواء بالاستيلاء واستدلت ببيت شعر فيه:

قد استوى بشر على العراق

من غير سيف أو دم مهراق

فسئل ابن الأعرابي، وهو من أكابر أئمة اللغة: هل يصح أن يكون استوى بمعنى استولى؟ قال: لا تعرف العرب ذلك.

ومن ذلك نفي المعتزلة رؤية المؤمنين ربهم مستدلين بقوله تعالى لموسى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾[1] فقالوا: إن لن تفيد التأبيد.

فرد عليهم أهل اللغة بأن لن لا تفيد التأبيد حيث قال ابن مالك في الكافية:

ومن رأى النفي بلن مؤبدا

فقوله اردد وخلافه اعضدا[2]

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٣).

(٢) متن الكافية الشافية، لابن مالك، ص ٨٦.

ومن الأئمة الذين برزوا في اللغة، الخليل بن أحمد الفراهيدي: الإمام، صاحب اللغة، ومنشىء علم العروض.

قال الذهبي:

(كان رأساً في لسان العرب، ديِّناً، ورعاً، قانعاً، متواضعاً، كبير الشأن، يقال: إنه دعا الله أن يرزقه علماً لا يسبق إليه ففتح له بالعروض.

وكان رحمه الله مفرط الذكاء، وهو معدود في الزهاد.

من أقواله:

إني لأغلق عليَّ بابي فما يجاوزه همِّي.

وقال رحمه الله:

لا يعرف الرجل خطأ معلمه حتى يجالس غيره)[١].

ومنهم إمام النحو، حجة العرب، أبو بشر عمرو بن عثمان الفارسي، المشهور بسيبويه:

---

(١) انظر ترجمته في السير: ٧/ ٤٢٦.

قال الذهبي:

(أقبل على العربية، فبرع وساد أهل العصر، وألف فيها كتابه الكبير الذي لا يدرك شأوه فيه.

سمي سيبويه لأن وجنتيه كانتا كالتفاحتين، بديع الحسن.

قال بعض أصحابه:

كنا نجلس مع سيبويه في المسجد، وكان شاباً جميلاً نظيفاً، قد تعلق من كل علم بسبب، وضرب بسهم في كل أدب، مع حداثة سنه.

وقيل:

كان فيه مع فرط ذكائه حبسة في عبارته وانطلاقة في قلمه)[١].

ومنه العلوم الطبيعية وعلوم الطب والصيدلة والتاريخ والجغرافية واللغات الأجنبية وغير ذلك من علم الدنيا.

فإنه وإن كان علماً لا يبتغى به وجه الله في أصله،

---

(١) انظر ترجمته في السير: ٨/ ٣٥١.

لكن المسلم إذا تعلمه لوجه الله، وابتغى به خدمته، وسد ثغرة يدخل منها الكفار، واحتسب ذلك كان له الأجر عند الله تعالى، وذلك يكون بإتقان علمه، ومحاولة تطبيقه في الدراسات التجريبية، ومن ثم العمل على التصنيع والإنتاج، ففي ذلك استغناء عن الكفار، وتوفير وقوة لاقتصاديات المسلمين.

وكذلك تعليم هذا العلم لأجيال المسلمين؛ لأنه من فروض الكفايات ويجب على المسلمين أن يكون فيهم من يقوم به.

وأيضاً فإن في إتقان هذه العلوم سد الباب على الكفار حتى لا يدخلوا علينا في ديننا ما ليس منه بدعوى العلم المجرد الواقعي، فكلنا درس القاعدة المعروفة عند أهل العلوم: المادة لا تفنى ولا تستحدث من عدم، ولولا أنه وجد من المسلمين من نبَّهَنا أنها قاعدة فلسفية نابعة من اعتقادهم بقدم العالم لما عرفنا؛ لأن كثيراً منا أخذ الأمر على أنها قاعدة علمية مُسَلَّمة لا يُجادَل فيها ولا علاقة لها بالدين البتة.

فإذا مكَّنك الله من هذه العلوم ورأيت أن ستبدع فيها فقد وجب عليك أن تتقي الله فيها، وأن لا يؤتى الإسلام من قِبَلِك، والنبي ﷺ يقول:

«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»[(١)].

فإذا كنت طالب علم، وتمكنت من أي فرع من الفروع فلا تنس نصيب الأمة منك، فإن بعض طلاب العلم يتعلم، ثم يقعد في بيته، ينتظر الناس أن يأتوه.

واعلم أنه إن جاءك واحد فمقابله مئة معرضون، فالواجب النزول للساحة، وعرض البضاعة على الناس، كما كان رسول الله ﷺ يعرضها على الناس حتى يسَّر الله له من حملها واشترى بها ما عند الله.

وما قلناه له قنوات عديدة:

١- الحرص على إمامة الناس في المساجد. فإن الأئمة موضع ثقة الناس، ولا يشترط أن يكون عالماً، بل المراد حفظ شيء من القرآن والحرص على نفع الناس، وإذا

---

(١) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة، ح ١١١٣.

استفتي فيما لا يعلم تحرَّى لهم الفتوى الصحيحة .

كما يحرص على إلقاء بعض المواعظ والدروس ولو قراءة، لعل الله ينفع به، ولو لم يكن في ذلك سوى سد الباب في وجوه الجهلة وأهل البدع أن يتصدروا للناس فيضلوا ويضلوا بغير علم لكان فيه لمحتسبه من الأجر ما الله به عليم .

فإن كان لديك شيء من القرآن وحسن الصوت والترتيل، ولديك الصبر على متابعة الصلوات بالناس فإنه والله كل الخير، إن زدت إلى ذلك شيئاً مما تقدم فحسن إلى حسن .

٢ - وإن كنت ممن آتاه الله **القدرة على الخطابة والوعظ والتأثير في المستمعين**، بقوة الأسلوب، وبلاغة الألفاظ، واختيار المعاني والمواضيع، فإن كنت منهم فاعلم أنك أوتيت مفاتح القلوب بإذن الله، فكم غافل تنبَّه، وكم نائم تيقظ، وكم غارق نجا، والفضل بعد الله تعالى لخطيب مفوّه، ولسان قاطع، تمر الآية والحديث بالواحد منا لا تحدث فيه أي تأثير، حتى إذا ما أجراها الله

على لسان بعض الخطباء قامت لها القلوب وقعدت، وأصغت لها الآذان واستمعت، فترى الأبدان مقشعرة، والقلوب وجلة، والعيون دامعة، فلماذا؟ إنه سحر البيان، وروعة الفصاحة، وقد قال ﷺ:

«إن من البيان لسحراً»(١).

ولا بد لك إذا كنت خطيباً أن تصقل هذه الموهبة بكثرة الاطلاع على كتب الأدب والشعر والقصص، وأن تمكِّن نفسك من العقيدة الصافية والفقه الحسن وشيء من مهمات الحديث، وقواعد الشريعة، وكثرة سؤال العلماء قبل أن تقدم على خطبة معينة، فإن الخطابة سلاح ذو حدين، والخوف أن يقع الخطيب بجهله في الغلط فيُحسِّن بروعة خطابه قبيحاً أو يُقبِّح حسناً.

٣- **إلقاء الدروس العلمية والمحاضرات** التي يُشرح فيها أمور تهم المسلم المعاصر، كالدعوة، والديانة، والكلام في المنكرات المنتشرة، أو تحليل المشاكل والمعضلات التي تمر بالأمة، ووضع الحلول والخطط

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح، باب الخطبة.

تمهيداً لتطبيقها، وكذلك شرح وبيان مقاصد الإسلام العامة، والثلب لأعداء الله من الكفار وأهل البدع، وكذلك الرد على من يهاجم الإسلام أو السنة، ونحو ذلك من الأمور العامة، فإن مكَّنك الله من إجادة ترتيب الفكر، واستخلاص العبر، وجمع النصوص وسردها وتحليلها؛ فلا تتردد في إلقاء المحاضرات متنقلاً بين البلاد وأنحاء المعمورة، فإن المحاضرات من أهم الأساليب الدعوية لقصرها، وانحسار مواضيعها، وخصوصاً إذا كان أمراً يعايشه المسلم ويبحث عمن يتكلم فيه.

٤ - **وقد يكون طالب العلم** قاصر الطرف عما تقدم لكن **له قدرة فائقة على التصنيف والتحقيق والترتيب والانتقاء والتأليف** من كتب منظورة، وعلوم مسطورة، فهذا والله مجال رحب، وميدان يسرح فيه الخيل السارح.

فإن كنت من هؤلاء فابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، فالتصنيف من أنفع الطرق الدعوية والعلمية للنهضة بالأمة، فإن العالم قد يجلس له العشرة والعشرون بل قل والمئة، والمئة كثير، لكن المصنف يقرأ له

الألوف بركة ما يسر الله لنا من الوسائل الحديثة التي تمكن المصنف من نشر آلاف النسخ من مؤلفه فلا يدع بيتاً إلا دخله، ولا مسجداً ولا مكتباً ولا مدرسة إلا وجدت مصنفات أهل الإسلام تتداولها الأيدي وتتلقاها الأفئدة، فتكون قد نشرت علماً ودعوت إلى الله وأنت خلف مكتبك، هذه والله الغنيمة الباردة.

قال الحافظ ابن الجوزي رحمه الله:

(رأيت من الرأي القويم أن نفع التصانيف أكثر من نفع التعليم بالمشافهة، لأني أشافه في عمري عدداً من المتعلمين، وأشافه بتصنيفي خلقاً لا يحصون ما خلقوا بعد، ودليل هذه أن انتفاع الناس بتصانيف المتقدمين أكثر من انتفاعهم من مشايخهم، فينبغي للعالم أن يتوفر على التصنيف إن وفق للتصنيف، فإنه ليس كل من صنف صنف، وليس المقصود جمع شيء كيف كان، وإنما هي أسرار يطلع الله عليها من شاء من عباده ويوفقه لكشفها، فيجمع ما فُرِّق، أو يرتب ما شُتِّت، أو يشرح ما أُهمل، هذا هو التصنيف المفيد)[١].

---

(١) صيد الخاطر، ص ٢٠٧.

ومما يقال هنا أن التصنيف على فوائده فإنه مزلة لكثير من الناس فيصنف أي شيء، إما رغبة في مال، أو شهرة، أو تعجلاً منه.

والواجب أن ينظر شيئاً ينفع الأمة لم يصنف فيه، أو يكمل نواقص مصنف في بابه، كما قال ابن الجوزي، فيشرح مبهماً، يفصل مجملاً، يستدرك فائتاً، ومن أنفع ما يدخل في ذلك تحقيق مصنفات القدماء وإخراجها إلى الوجود سليمة من التحريف والسقط ونحوه.

فإن عدم المصنف في الموضوع المعين وله ملكة التصنيف فليشمر له مستعيناً بالله، فإن في ذلك نفعاً عميماً، وسداً لثغرة من ثغور المسلمين.

إن التمرس في طلب العلم وتعليمه، وتمضية أوقات العمر في ذلك هو الشرف الذي لا شرف فوقه أبداً.

إن للعلم والانشغال به في نفوس أصحابه لذة عجيبة، فإذا حصل الواحد منهم فائدة جديدة طار بها فرحاً، وغرق قلبه وعقله في نشوة الانتصار والفوز التي عادة ما يشعر بها من بذل جهداً وتعباً ومالاً في تحصيل

شيء ثم يفوز به.

ولذلك كان لأهل العلم أحوال عجيبة في الهيام به، وبذل الغالي والنفيس من أجله، حتى إن ابن عباس رضي الله عنهما كان ينام عند عتبة باب زيد بن ثابت رضي الله عنه في القائلة ينتظره إلى أن يخرج، حتى يسأله عن حديث سمعه من النبي ﷺ.

وكان قائلهم يقول:

(لو يعلم أبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف).

وأي لذة هذه التي يستعذب فيها الواحد منهم ترك داره وبلده وأهله ويرتحل السنين الطويلة متنقلاً بين البلاد من أجل تحصيل العلم؟! ولو لم يكن لهم في ذلك من النعيم النفسي واللذة المتناهية في طلبه وتحصيله، ما تحملوا تلك المشاق من أنفسهم طوعاً هكذا دون مقابل يطلبونه إلا من الله تعالى وحده.

فهل تغشى قلبك الرغبة لتذوق تلك الحلاوة الموعودة، والتنعم بنعيم أهل العلم بعلمهم؟ فلئن أحس

بشوق وتطلع إلى دخول هذا العالم الفسيح، عالم العلم الواسع، والاستمتاع برشف أطايب شرابه، واستنشاق زاكي عبيره فلعلك أن تضع يدك على طرف الطريق الذي سلكه أولئك المتنعمون بعلومهم، الأشقياء بجهل غيرهم بما هم فيه، ولكن العاقبة للتقوى والأمور بخواتمها.

هل أنت صاحب همة ونشاط وحب للحركة؟

إن لم تكن لك القوة والمدارك التي تمكنك من طلب العلم، فهل أنت صاحب همة ونشاط وحب للحركة؟

تستطيع أن تطرق أبواب الجنة من خلال كثير من المجالات التي لا تحتاج إلا النشاط والوقت والقدرة على الحركة:

١ - فمن ذلك **الحرص على المشاركة في الدعوة إلى الله، بتوزيع الأشرطة، والكتب النافعة**، أيُّ أجر جزيل وثواب عظيم تدركه إن حسنت منك النية، قال ﷺ:

«نضّر الله امرءاً سمع مني مقالة فوعاها، ثم أدّاها كما سمعها، فرب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»[١].

(١) أخرجه أحمد: ٥/ ١٨٣، وأبوداود في العلم، باب فضل نشر العلم، والترمذي في العلم، باب ما جاء في الحث على =

وأنت بحملك الشريط والكتاب لا تحتاج أن تعي ما فيها، بل إنك لتؤديها كما قالها صاحبها لا كما سمعتها، فتأمن من الخطأ في النقل، وقد قال ﷺ:

«بلغوا عني ولو آية»(١).

وأنت تبلغ آيات وأحاديث ومواعظ لا حصر لها، وتحمل الخير إلى الناس.

إن حمل الأشرطة والكتب إلى الناس هو نصف الدعوة؛ لأن الدعاة يتكلمون ويعظون ويكتبون ويبقى الجزء الذي لا يقل أهمية، وهو حمل تلك الجهود وإيصالها إلى من يحتاج إليها، وأنت إذا احتسبت ذلك عند الله حصل لك الأجر، فلك غِنمُها وعلى أصحابها غِرمُها، ترجع بالأجر الصافي، ويرجعون بالمحاسبة.

= تبليغ السماع، والطبراني، ح٤٨٩٠، وابن ماجه في المقدمة، باب من بلغ علماً، وغيرهم، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة، ح٤٠٤.

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل.

٦ - **تستطيع أن تدخل الجنة بصلة الرحم،** أَكثِرْ من وصل أرحامك وتفقدهم، فإن النبي ﷺ يقول:

«من أحب أن يُبْسَط له في رزقه ويُنْسَأَ له في أثره فليصل رحمه»(١).

صلة الرحم سبب في سعة الرزق والبركة في العمر، ولما استعاذت الرحم بربها قال لها:

«ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك»(٢).

فقم بزيارة الإخوة في الله وكل من تعرف، وكوِّن العلاقات الجديدة في عملك وفي حيِّك بالضوابط الشرعية، وأهمها:

* لا تجالس صاحب منكر أثناء فعله للمنكر.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب من بسط له في الرزق لصلة الرحم، ومسلم في البر والصلة، باب صلة الرحم، عن أنس ابن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن، باب ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

* لا تبالغ في الخلطة بمن تظن تأثيره عليك.

* كن في ذلك كله مبلِّغاً للخير، تذكُر لأحدهم سُنَّة، تنصحه، تذكره بشيء نسيه، تخبره عن محاضرة أو درس، فإن لم يكن شيء من ذلك فإن مجرد وجودك في حياة الناس بزيك الإسلامي وهيئتك السُّنِّية يبعث الروح في الأجساد الميتة، ويُبقى لدى الناس القناعة بأن الدين ما زال له من يحمله، وأن الدنيا بما فيها من الشر والفساد ما زال فيها الخير لمن أراده وقصده.

٣ - **تفقد المساكين والمحتاجين**، وخصوصاً أولئك الذين تعففوا عن السؤال، فمن يدل أهل الخير عليهم إلا أنت، فإذا عرفت عن محتاج فكن أنت حلقة الوصل بينه وبين المنفقين، وقم بإيصال الحاجات إلى أصحابها.

اسع في حاجات إخوانك وجيرانك بل أي مسلم يحتاج إلى من يقوم بخدمة له، فـ:

«من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم، ومسلم في البر والصلة، باب تحريم الظلم، عن ابن عمر =

٤ ـ اتباع الجنائز من حقوق المسلم على أخيه، وفي اتباعها أجر من الله تعالى عظيم.

قال ﷺ:

«حق المسلم على المسلم ست، قيل: وما هنَّ يا رسول الله؟ قال: إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمِّته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه»[1].

وصح عنه ﷺ أنه قال:

«من اتَّبع جنازة مسلم إيماناً واحتساباً، وكان معه حتى يصلي عليها ويفرغ من دفنها، فإنه يرجع من الأجر بقيراطين، كل قيراط مثل أحد، ومن صلى عليها ثم رجع قبل أن تدفن فإنه يرجع بقيراط»[2].

= رضي الله عنهما.

(١) أخرجه مسلم في السلام، باب من حق المسلم للمسلم رد السلام، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، باب اتباع الجنائز من الإيمان، ومسلم في الجنائز، باب فضل الصلاة على الجنازة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وعند مسلم أن ابن عمر لما سمع بهذا =

٥ ـ إماطة الأذى عن الطريق، أمر نتساهل فيه كثيراً، فخذ أنت منه بحظ وافر، وهو من شعب الإيمان، كما قال ﷺ:

«الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخّره، فشكر الله له فغفر له»[(٢)].

وقال النبي ﷺ لأبي برزة لما سأله أن يعلمه شيئاً ينتفع به:

«اعزل الأذى عن طريق المسلمين»[(٣)].

= الحديث قال: لقد فرطنا في قراريط كثيرة.

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب أمور الإيمان، ومسلم في الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان، عن أبي هريرة رضي الله عنه، والشاهد ليس في رواية البخاري.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان، باب فضل التهجير إلى الظهر، ومسلم في البر والصلة، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق، وفي رواية لمسلم «فدخل الجنة».

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق.

٦ - ومما يمكنك استثمار وقتك فيه عيادة المرضى، ففيهما أجر من الله عظيم، وثواب منه جزيل، وهي من حق المسلم على أخيه المسلم، كما مر في حديث أبي هريرة قريباً.

كما ثبت عنه ﷺ أنه قال:

«من عاد مريضاً لم يزل في خُرْفة الجنة، قالوا: يا رسول الله، وما خرفة الجنة؟ قال: جناها»(١).

٧ - ومن أبواب الخير أيضاً الإكثارُ من السلام، حدَّث أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال:

«لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا، حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»(٢).

وكان ابن عمر رضي الله عنه ينزل إلى السوق ليس

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب فضل عيادة المريض، عن ثوبان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون.

له حاجة إلا السلام والإكثار منه .

٨ ـ ومن أبواب الخير كذلك الرفق بالحيوان: بأن تسقيه، أو تطعمه، أو تطلب له دواء، أو تمنع عنه أذى، فكل ذلك من أسباب دخول الجنة .

ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال :

«بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له، قالوا : يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال : في كل كبد رطبة أجر»[١] .

بل في صحيح مسلم عن النبي ﷺ :

«أن امرأة بغياً رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر، قد

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب رحمة الناس بالبهائم، ومسلم في السلام، باب فضل ساقي البهائم وإطعامها .

أدلع لسانه من شدة العطش، فنزعت له بموقها فغفر لها به»(١).

فإذا كان سُقيا كلب سبب في مغفرة الله تعالى لِبغيٍ، أي زانية تمارس الزنا حتى تعرف به، فما الذي يؤخِّرُنا عن طلب ذلك؟

تستطيع أخي أن تملأ وعاء تضعه في نافذة المنزل وتتركه يشرب منه الطير، أو ترى كلاباً أو قططاً تذهب وتجيء فتريق بجوارها، أو تضع لها في وعاء بعض الماء لتشرب منه، أو أن تجمع بقايا طعامك وتأتي بها بعض القطط أو الكلاب أو الطيور فتطعمها، خير من أن يكون مصير بقايا الطعام حاويات الزبل مع رجيع الأطفال، ففي ذلك وقاية من ازدراء النعمة وأجر في رحمة الحيوان.

أرأيت أيها الحبيب! كم من مجال أتيح لك، وكم من باب فتح على مصراعيه وما عليك إلا أن تلج، وما بقي إلا أن تعي أين تضع قدمك، فدع عنك شغلك

---

(١) أخرجه مسلم في السلام، باب فضل ساقي البهائم وإطعامها، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

بالناس وعليك بما ينجيك أنت.

أترى عدلاً منك مع نفسك المسكينة أن تتشاغل بغيرك وتضيِّعَ من بين يديك آلاف الفرص التي تتاح لك لتكون من أهلها ومن سكانها، ما الذي يعيقك عن فعل الخير ولو كان مما سهل فعله وعظم أجره، مما قد لا يكلفك أحياناً أكثر من أن تقبض عضلات وجهك شيئاً قليلاً لتفرج عن ابتسامة وضيئة في وجه أخ لك في الله، يهش لها ويبش، وقد يدعو لك بظهر الغيب، وقد تحيي في قلبه أملاً يحتضر، وقد تعيده إلى حظيرة الدين حياء منك، وقد.. وقد..، أشياء لا تحصر من حسنة واحدة عدَّها النبي ﷺ صدقة:

«تبسمك في وجه أخيك صدقة»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في صنائع المعروف، وابن حبان، ح ٤٧٤ و٥٢٩، وأصله في مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة الضحى... عن أبي ذر، وله شواهد من حديث أبي هريرة، وعائشة، وحذيفة، وغيرهم، وصححه الألباني في الصحيحة، ح ٤٥٤.

هل أنت ذو مال؟

المال من أعظم الطرق الموصلة إلى رضا الله تعالى، كيف لا وهو فتنة هذه الأمة، كما قال ﷺ:

«لكل أمةٍ فتنة، وإن فتنة أمتي المال»[1].

ولا شك أن الإنفاق في سبيل الله دليل تباعد صاحبه عن الدنيا، وعظم محبة الله في نفسه، فهو يهلك أعز الأشياء على النفس في سبيل ربه تعالى:

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[2].

---

(١) أخرجه أحمد: ٤/ ١٦٠، والترمذي في الزهد، باب ما جاء أن فتنة هذه الأمة المال، والحاكم: ٤/ ٣١٨، عن كعب بن عياض رضي الله عنه، وصححه الترمذي، والحاكم، ووافقه الذهبي.

(٢) سورة الليل: الآية (١٧ ـ ٢١).

وإن السبل التي ترضي بها ربك بمالك وتنال ما عنده من العز والكرامة في الدارين كثيرة لا تحصى، أذكر لك على سبيل المثال:

١ ـ الإنفاق على الجهاد:

وهو من وجوه صرف الزكاة الواجبة، قال تعالى:

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[(١)].

وقال عز وجل:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[(٢)].

وقال ﷺ:

«من أنفق زوجين في سبيل الله دعي من أبواب الجنة: يا عبدالله، هذا خير»[(٣)].

---

(١) سورة التوبة: الآية (٤١).
(٢) سورة الصف: الآية (١٠ ـ ١١).
(٣) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: =

أي أن كل خازن من خزنة أبواب الجنة يدعوه ليدخل منه، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه مطولاً، وفيه:

«فكل من أنفق زوجاً من المال مما يملك في سبيل الله فكل خزنة الجنة يدعوه: يا عبدالله، يا مسلم، هذا خير»(١).

وجاء تفسير الزوجين في حديث أبي ذر حيث سئل عن تفسيره فقال:

(إن كان رجالاً فرجلان، وإن كانت خيلاً ففرسان، وإن كانت إبلاً فبعيران حتى عدَّ أصناف المال كله)(٢).

وفي صحيح مسلم وغيره، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً:

«أفضل دينارٍ دينارٌ ينفقه الرجل على عياله، ودينار

= «لو كنت متخذاً خليلاً»، ومسلم في الزكاة، باب من جمع الصدقة وأعمال البر، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، ح ٤٦٤٢.

(٢) أخرجه أحمد: ٥/ ١٥١، وابن حبان، ح٤٦٤٥، وإسناده صحيح.

ينفقه الرجل على دابته في سبيل الله، ودينار ينفقه الرجل على أصحابه في سبيل الله»[١].

وعن خريم بن فاتك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«من أنفق نفقة في سبيل الله كُتب له سبعمائة ضعف»[٢].

وعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه أن رجلاً تصدق بناقة مخطوطة في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ:

«لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة»[٣].

٢ ـ سد دين المعسرين والغارمين:

فإن في ذلك فكاكاً لرقابهم، وإبراء لذممهم، فابحث عنهم تجدهم، إما في غياهب السجن، وإما

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة، باب فضل النفقة على العيال.

(٢) أخرجه أحمد: ٤/ ٣٤٥، والترمذي في فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل النفقة في سبيل الله، والحاكم: ٢/ ٨٧، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة، باب فضل الصدقة في سبيل الله وتضعيفها، والخطام: هو الحبل الذي يقاد به البعير.

قابعين في بيوتهم لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، وتذكر أن:

«من فرَّج عن مسلم كربة فرَّج الله بها عنه كربة من كرب يوم القيامة»[١].

ومثله إنظار المعسر، والتيسير على من تعامل معك بمعاملات مالية، فإن ذلك مدعاة لرضا الرب سبحانه وتعالى، كما جاء عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً:

«تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم فقالوا: ما عملت من الخير شيئاً؟ قال: لا، قالوا: تذكَّر، قال: كنت أداين الناس فآمر فِتيَاني أن ينظروا المعسر، وأن يتجوزوا عن الموسر، قال: قال الله عز وجل: تجوزوا عنه»[٢].

وأصرح منه حديث أبي مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب تحريم الظلم، عن ابن عمر.
(٢) أخرجه مسلم في المساقاة، باب فضل إنظار المعسر، عن حذيفة رضي الله عنه.

«حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء، إلا أنه كان يخالط الناس. . فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر، قال: قال الله عز وجل: نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه»[١].

٣ ـ الإنفاق على الفقراء والمساكين:

وأقصد بهذا أن تلتزم بنفقات أسرة أو أكثر حسبما يقدر الله لك، من المأكل والمشرب والملبس والعلم وغير ذلك، وهذا أفضل من توزيع الصدقات بلا تنظيم كما يفعله كثير من ذوي اليسر في بلادنا.

والطريقة الأفضل: أن ينظر إلى حال هذا الفقير وسبب فقره، فإن كان بسبب عدم وجود العمل فحاول إيجاده له، ولو بإعطائه بعض المال يتجر به فيكفي نفسه وأهله ويستعف من السؤال مرة أخرى، وإن كانت بسبب دين قضي دينه، وإن كان بسبب عدم القدرة على العمل أو أن تكون أسرة بلا عائل فحينئذ ينفق عليها، وقد صح عنه ﷺ أنه قال:

---

(١) أخرجه مسلم في المساقاة، باب فضل إنظار المعسر.

«الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو كالقائم لا يفتر وكالصائم لا يفطر»(١).

٤ ـ الإنفاق على الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى:

وذلك يتم من خلال عدة قنوات:

فمنها التكفل بنفقات دعاة متفرغين للدعوة إلى الله، ومنها طبع الكتب الشرعية والدعوية التي يستعين بها أهل الدعوة في إيصالها إلى من يحتاجها، ومنها نسخ الشريط الإسلامي، وهذا من أعظم وسائل نشر الدعوة، ومن ذلك بناء المساجد والمراكز الإسلامية، ومن ذلك إصدار الجرائد والمجلات التي تُعنى بأمر الدعوة.

وأنت في ذلك كله إضافة إلى فضل الإنفاق، داخل في قوله ﷺ:

«**لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم خذلان من خذلهم حتى تقوم الساعة**»، وفي لفظ:

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب الساعي على المسكين، ومسلم في الزهد، باب الساعي على الأرملة والمسكين، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

«**لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين**»[١].

قال النووي رحمه الله:

(يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين، ما بين شجاع وبصير بالحرب، وفقيه، ومحدث، ومفسر، وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وزاهد، وعابد)[٢].

والمنفق على الدعوة لا يقل عن هؤلاء شأناً.

٥ ـ كفالة الأيتام:

واليتيم هو من فقد أباه فلم يجد من ينفق عليه ويعوله حتى يكبر ويشتد عوده، وقد صح عنه ﷺ أنه قال:

---

(١) روي عن عدد من الصحابة، وأخرجه مسلم في الإمارة، باب قوله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين**»، عن ثوبان، ح ١٩٢٠، والبخاري في الاعتصام، باب قول النبي ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين**»، عن المغيرة بن شعبة، ح ٣٤٦١، وغيرهما بألفاظ متقاربة.

(٢) شرح صحيح مسلم: ٣/ ٦٦ ـ ٦٧.

«أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة، وأشار بالسبابة والوسطى»[١].

٦ - تزويج الأيامى:

وهو من أعظم أوجه البر؛ لما في ذلك من وقاية المجتمع من انحرافات خلقية كثيرة، وهو داخل في التعاون على البر والتقوى، وقد قال تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[٢]

٧ - وهو من أعظمها: توظيف المال لضرب الإنتاج الكافر، وإضعاف اقتصاد العدو من جهة، ومن جهة أخرى الاستثمار في البلاد المسلمة، ودعم منتوجاتها، بشرائها أو دعمها والاستصناع فيها، بحيث توفر الأموال الإسلامية للمسلمين كل المنتوجات بمواصفات إسلامية على أقل تقدير.

وفي هذا رفع للحرج عن الأمة، وسد طرق الدعوة

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق، باب اللعان، ومسلم في الزهد، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سورة المائدة: الآية (٢).

للتنصير والانحلال عن طريق منتوجات الكفار، وهذا والله من أعظم الجهاد، وفيه أجر عظيم من الله تعالى إذا احتسب فيه المؤمن.

وكلي أمل في كل صاحب مال أن يفكر ألف مرة في هدف استراتيجي يحقق ما ذكرته من المقاصد أو بعضها، لعل الله يبارك له في ماله، ويصفو له أجر الدنيا والآخرة، وليس ذلك بعسير على من توكل على الله واجتهد في تحصيل المطلوب.

ومن أفضل النماذج الحالية ما نراه من إنشاء كثير من المصارف الإسلامية التي تتعامل وفق الشرع المطهر، فسهلت للمسلم المعاصر قنوات يستطيع من خلالها الحصول على جميع الفرص التي توفرها البنوك، من تمويل، أو قروض، أو استثمار، أو غير ذلك لكن دون محذور شرعي، فكان أن أقبل عليها الناس أفواجاً فنجحت نجاحاً باهراً، وعددها يزيد كل يوم، مما اضطر كثيراً من البنوك أن تتمسح بالدين فتنشىء أقساماً داخلها يقولون إنها تتعامل حسب الشرع، فأين هم من هذا الإجراء من عشرات السنين، والمسلمون يأملون منهم

ذلك دون جدوى، حتى إذا أحسوا بإعراض الناس عنهم، واتجاههم إلى المصارف الشرعية بدأوا بالتمويه والمراوغة والتمسح بالدين، فدونكم يا أهل المال، اقطعوا الطريق على هؤلاء وأرغموهم على الخضوع لشرع الله.

﴿ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾(١).

ومن أشهر المنفقين في عصور التاريخ الإسلامي: أمير المؤمنين، الصحابي الجليل، ذو النورين، عثمان ابن عفان رضي الله عنه، أنفق من ماله بل أنفق ماله حتى قال له النبي ﷺ:

«ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم»(٢).

فقد جهز جيش العسرة بكامله، واشترى للناس بئر رومة ووقفها على المسلمين، وفي كل ذلك يعِدُه النبي ﷺ الجنة.

---

(١) سورة محمد: الآية (٣٥).
(٢) أخرجه أحمد: ٥/ ٦٣، والترمذي في المناقب، باب مناقب عثمان بن عفان، عن عبدالرحمن بن سمرة، وحسنه.

وكان عبدالله بن جعفر بن أبي طالب من أشهر الكرام الباذلين: أعطاه يزيد بن معاوية عطاءً قدره عطتءه ثلاثة آلاف ألف درهم، فقال له رجل: تعطي هذا العطاء رجلاً واحداً؟ فقال: والله ما أعطيته إلا لجميع أهل المدينة، وأنفذ يزيد من يرقبه، فما وصل المدينة حتى فرّق ذلك المال كله، ولم يمض شهر حتى احتاج إلى الدَّين[1].

ولا دليل أيها الحبيب أدل على أهمية الإنفاق ومحبة الله له من جعله أداء الزكاة ثالث أركان الإسلام، ولا تكاد تجد ذكر الصلاة إلا مقرونة بالزكاة، لماذا؟

لأن الإنفاق من المال دليل تفوق محبة الله في قلب عبده على محبة المال، ولأن الغالبية العظمى من الأمراض الاجتماعية والخلقية تتسبب عن تدني مستوى المعيشة، فتكون أنت وأمثالك من المنفقين أوتاداً يثبت الله بها المجتمع من السير نحو الهلاك، ودعائم لعلها يُستند عليها لتصحيح مسار الجيل، ودواء يتطبب به مرضى كثيرون، فأي أجر أصبت، وأي مكانة تبوأت أيها المنفق!

---

(١) انظر أخباره في السير: ٣/ ٢٥٦.

هل لك والدان أو أحدهما؟

إذن اجعلهما طريقك للجنة، فهما جنتك أو نارك كماجاء عن النبي ﷺ.

قال تعالى قارناً حقهما بحقه جل وعلا:

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾[1].

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال:

«من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: ثم أمك، قال: ثم من؟ قال: ثم

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٢٣ ـ ٢٤).

أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك»[١].

وجاء آخر إلى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد فقال له:

«أحي والداك؟ قال: نعم، قال: ففيهما فجاهد»[٢].

وفي رواية للحديث من طريق معاوية بن جاهمة أن أباه رضي الله عنه أتى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد، فقال له:

«هل لك من أم؟ قال: نعم، قال: فالزمها فإن الجنة تحت رجليها»[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«رغم أنفه، ثم رغم أنفه، ثم رغم أنفه، قيل: من يا رسول الله؟ قال: من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب بر الوالدين، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب بر الوالدين، عن ابن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أحمد: ٣/ ٤٢٩، والحاكم: ٢/ ١٠٤، وصححه الألباني في الإرواء: ٥/ ٢١.

كليهما فلم يدخل الجنة»[١].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ:

«أي العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها، قلت: ثم أي؟ قال: بر الوالدين، قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله»[٢].

وبر الوالدين سبب في سعة الرزق، ومحبة الله تعالى ورضاه، قال ﷺ:

«رضا الرب في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب رغم أنف من أدرك أبويه عند الكبر فلم يدخل الجنة.

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، ومسلم في الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله أفضل الأعمال، وهذا لفظ البخاري.

(٣) أخرجه البغوي في شرح السنة، ح٣٤٢٤، والحاكم: ٤/١٥١-١٥٢، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء من الفضل في رضى الوالدين، وصححه الألباني في الصحيحة، =

أما كيف يبر المؤمن والديه، فجامعه أن يأتي إليهم كل حسن أصغره وأعظمه حسب استطاعته، وأن يكف عنهم كل أذى حقير أو عظيم حسب استطاعته، وأن يطيعهما طاعة مطلقة في غير معصية الله، وأن يعاملهما برفق حتى ولو كانا مشركين أو فاسقين، وأجره على الله تعالى، قال ﷺ:

«الوالد أوسط أبواب الجنة»(١).

وأخبار البررة كثيرة، يكفيك منها سيد التابعين، أويس بن عامر بن جزء بن مالك القرني المرادي اليماني: القدوة، الزاهد، سيد التابعين في زمانه.

قال عنه ﷺ لعمر رضي الله عنه:

«يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد اليمن، من مراد ثم قرن، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له

= ح ٥١٦، عن ابن عمرو رضي الله عنهما.

(١) أخرجه أحمد: ٥/١٩٦، وابن ماجه في الطلاق، باب الرجل يأمره أبوه بطلاق امرأته، والحاكم: ٤/٢٥١، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء من الفضل في رضى الوالدين، وانظر الصحيحة، ح ٩١٤.

والدة هو بها بر، لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل»[1].

وعن أصبغ قال:

(إنما منع أويساً أن يقدم على النبي ﷺ بره بأمه).

وقد جاء عن النبي ﷺ قوله:

«يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من بني تميم»[2]، وقد رويت أخبار ضعيفة أن هذا الرجل هو أويس القرني[3].

إن بر الوالدين دليل على الوفاء والاعتراف لصاحب اليد بفضله، ولا يفي بحق خالقه أبداً من لا يفي والديه بحقهما.

ولذلك نفهم سر التعبير عن عصيان الوالدين بالعقوق، مع أنه عصيان، غير أن العقوق يتضمن معنى

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، ح ٢٥٤٢، عن عمر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد: ٣/ ٤٦٩، والترمذي في صفة القيامة، باب ١٢، ح ٢٤٣٨، وابن ماجه في الزهد، باب ذكر الشفاعة، ح ٤٣١٦.

(٣) انظر ترجمته في السير: ٤/ ١٩.

زائداً، إذ هو عصيان من له حق عليك وأذيته، وتلمح منه الجحود والتنكر للنعمة والفضل وعدم الوفاء لصاحبه، فلذلك سمي عقوقاً وأصله من الشق والقطع، والعرب تسمي الرجوع بالإنكار والأذى لصاحب الفضل على الشخص عقوقاً.

وأي نعمة وفضل لمخلوق على مخلوق أعظم من فضل الوالدين على ولدهما؟ وأي حق أعظم من حق قرنه الله تعالى بحقه أكثر من مرة؟

ولا أظن العقول ولا العلوم ولا البديهيات ولا النظريات تستشنع منظراً وتستقبح مخبراً بعد الشرك بالله من ضرب ولدٍ والديه، أو شتمهما، أو حتى مجرد منعهما حقوقهما، فضلاً عما نسمعه هذه العصور من قتلهما، أو رميهما في حاويات النفايات[١]، أو غير ذلك من محدثات عصرنا فوق ما أحدثه أهل القرون الغابرة من الفجور والطغيان، نسأل الله السلامة.

(١) وفيه قصص عرفنا أهلها، ونحكي ذلك عن معاينة لا عن خبر مجهول.

وحق له ﷺ أن يعلنها:

«إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه، قالوا: وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه»[١].

ومنه نلمح عظم هذا الأمر، فهو من أكبر الكبائر بمجرد أنه تسبب في لعن والديه ولو لم يقصد ذلك هو، فكيف بلعنهما عمداً من الولد؟ فكيف بضربهما؟ فكيف بما هو أشد؟

ثم انظر إلى استفهام الصحابة عن ذلك، فهو أمر لم يكن معهوداً حتى في أخلاق الجاهلية أن يسب الرجل والديه، ولذلك استفهموا عن ذلك واستغربوه، فأين من يقول لا إله إلا الله ممَّن شَتْمُ والديه يجري على لسانه كما يجري الهواء في رئته، نسأل الله الحماية.

فإن كانت معصيتهما بهذه المثابة من العظم والخطورة فإن طاعتهما بمنزلة لا تخفى، فالله الله يا أيها

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب لا يسب الرجل والديه، عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

المبارك أن تضيع من يدك باباً مشرعاً من أبواب الجنة، أمك أو أبوك أو كلاهما مفتاح بيدك للجنة إن أحسنت لهما، رغم أنفك، ثم رغم أنفك، ثم رغم أنفك إن أدركتهما أو أحدهما ثم لم تدخل الجنة!!

هل لك بنات؟

فإنهن من أبواب الجنة وأسباب دخولها، ووقاية من العذاب، لكن بشرط أن يحسن معهن المعاملة، وأن يسعى عليهن كما أمره الله تعالى، قال ﷺ:

«من كان له ثلاث بنات فصبر عليهن، وأطعمهن، وسقاهن، وكساهن من جِدَتِه كن له حجاباً من النار يوم القيامة»[1].

وإنما يكون ذلك إذا رباهن على شريعة الله، فعلمهن الديانة والصيانة والعفاف والحجاب، وراقب الله فيهن، خصوصاً في هذه العصور المتأخرة، فيعرف

---

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في النفقة على البنات والأخوات، وابن ماجه في الأدب، باب بر الوالد والإحسان إلى البنات، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، وانظر السلسلة الصحيحة، ح ٢٩٣.

مَن صويحباتهن، ومَن قريناتهن، ويخلص لهن النصح والمشورة، وما كان خير لهن أخذ به ولو كرهن، وما كان فيه شر لهن رده وأعرض عنه ولو أحببن واشتهين، فإن السفه طبع النساء، وإنما يعامل الرجل بناته بما يرضي الله تعالى، فإذا فعلت ذلك فأبشر والله بالجنة.

إن هذا الأمر ليس بالهين، فإن صاحب البنات على ثغرة عظيمة، ولو أن كل أب قام بواجبه أمام الله في بناته ما رأينا هذه الأعداد الهائلة من الساقطات والمفتونات، اللواتي أصبحن لعبة بيد الفجرة وعباد الشهوة يقلبونهن كيف شاؤوا، فأي شر وبلاء أصابنا بسبب إهمال تربية البنات؟

إن انكباب الرجل على تربية بناته والإحسان في ذلك خير من التطواف بالبلدان للدعوة، أو لطلب العلم، أو التجارة، أو أي شيء آخر إذا كان لا يقوم بذلك غيره؛ لأن ذلك في حقه واجب وفرض عليه، وقيامه به أوجب من الدعوة وطلب العلم؛ لأن ذلك فرض كفاية، وفعله هذا من باب الاشتغال بالمهم عن الأهم[١].

---

(١) وهذا طبعاً إذا كان هناك ثم تعارض بين الاثنين، بمعنى أنه =

كان السلف الصالح يبحثون لأبنائهم عما يصلح آخرتهم، لا تسمينهم وعلفهم حتى يصبحوا كالبهائم كما يفعل البعض في عصورنا هذه.

سعيد بن المسيب رحمه الله: من أجِلة التابعين، زوج بنت أبي هريرة رضي الله عنه، كان رأساً في العلم والزهد والرواية حتى عمّت شهرته الآفاق، وجرت له محنة مع الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان حول البيعة.

وكان لسعيد ابنة أراد عبدالملك خطبتها لابنه الوليد، فأبى عليه حتى إن عبدالملك ضربه مائة سوط، وصب عليه جرة ماء في يوم بارد.

ثم إن سعيداً افتقد أحد طلابه، فلما جاء سأله عن سبب تأخره فأخبره أن زوجته قد ماتت، فعرض عليه سعيد أن يتزوج، فقال الرجل: من يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟ فقال: أنا، فلم تمض تلك الليلة إلا

= إذا انشغل بالدعوة وطلب العلم فرط في تربية بناته، ولا شك أن السفر من أجل الدعوة وطلب العلم من الفضول لا من الأساسيات، وإلا فإن طلب العلم الواجب، والقيام بواجب الدعوة يمكن للعبد في بلدته ومحل إقامته في الأغلب.

وزوجته في بيته، أرأيت الذي يريد الآخرة؟ هكذا وإلا على أنفسهم فليبك الآباء.

أَوَ حسبت هذه الفتاة رخيصة على أبيها، أو أنها هانت عليه؟ كلا، لقد جاءت لها الدنيا راكعة فردها عنها، واختار لها الآخرة حين زوجها طالب علم متدين من طلابه الذين عرفهم وخبر دواخلهم، ثم ماذا؟

قال الرجل: (فدخلت بها فإذا هي أجمل الناس، وأحفظ الناس لكتاب الله، وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ، وأعرفهم بحق زوج).

أرأيت الصفات؟ وهل جاء بعبد الملك واحتاج إلى من أبى مبايعة ولديه إلا هذا الشرف؟.

ثم ماذا كان؟ قال الرجل:

(ثم أتيته بعد شهر فسألني عن حالي وعن ابنته، فأخبرته أني على خير حال، فقال: إن رابك شيء فالعصا، ثم وجَّه لي بعشرين ألف درهم)[1].

أين الآباء الذين يعتبرون إعانة أصهارهم إهانة لهم

---

(١) انظر القصة في السير: ٤/ ٢٣٣.

وذلاً وحاجة، أين هم عن ابن المسيب، إنه يفعل ذلك كله لا للزوج بل لابنته، إنه يريد أن يمهد لها حياة الديانة والصيانة والعفاف، لا كما يفعل بعض الناس في أيامنا يزوجها من صاحب دنيا، لا يسترها بل يفضحها، ويعريها أمام الناس، ويجبرها على الفجور والمعاصي، ويقودها إلى النار وبئس القرار، والثمن: تمتع بدنيا يوشك عن قريب تنقضي، ويبقى بعد ذلك تبعاتها.

أيها الفاضل: إن هم تربية الأبناء هم كبير يتساهل فيه كثير من الناس؛ لأنهم لم يقعوا في بلاء، ولأن الله تعالى بمنه يتفضل بحفظ كثير من الأبناء والبنات لا لجهد آبائهم في تربيتهم بل ربما لحسنة قدمها الوالدان أو من فوقهما في جنب الله؛ فكان جزاء الله عوضاً عن ذلك حفظ الأبناء، حتى إنه جاء في تفسير قول الله تعالى في سورة الكهف:

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾[1].

(١) سورة الكهف: الآية (٨٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنهما حفظا بصلاح أبيهما ولم يذكر منهما صلاحاً.

وعن محمد بن جعفر أنه كان بينهما وبين الأب الذي حُفِظا به سبعة آباء[1].

فانظر عافاك الله، فإنه ليس ضرورة من صلاح الابن صلاحُ الوالد وجهده في تربيته، فكم رأينا من أبناء قمة في الصلاح وآباءهم في الحضيض، والعكس موجود.

والمراد أنه وإن كان ذلك متقرراً فلا يجعله الوالد حجة يستمري بها كسله وتوانيه عن متابعة أبنائه، فتراه يقول: الهداية من الله، وإذا أراد الله له هداية فسيهتدي، ويضرب مثلاً بابن الجيران الذي هداه الله بعد ضلال دون تربية.

وهذا خطأ جسيم، فلا شك أن كل شيء بيد الله غير أنك مأمور بالاجتهاد في التربية، ثم بعد ذلك يمضي قدر الله بما سبق في علمه، وما يدريك أن ابن الجيران الذي هداه الله إنما هداه لأمر لم تقدمه أنت، فيضيع أبناؤك،

---

(١) تفسير ابن جرير: ٨/٢٦٨.

وتحل الكارثة، ويقع الندم، وما أقسى الشعور بالندم حين لا ينفع الشعور به.

وأخص بذكر الهم بالأبناء: البنات، فإنهن خلقن ضعيفات ساذجات، وفي عصورنا هذه تعددت صور المكر من دعاة الرذيلة والفسقة، فوالله إنه لمن أسهل الأمور الإيقاع بفتاة ساذجة، والسبب الرئيس إهمال الأب والأم، والثقة العمياء، وترك أسباب الفساد تعربد في نفوس البنات دون رادع ولا وازع ولا ناصح، فماذا تبغي من نفوس هذا حالها؟

أين ذلك الأب الذي حمل بناته كما حمله إسحاق ابن إبراهيم المصعبي، فقد ذكر أحد منادميه قصة تصلح للعبرة، قال:

(إن إسحاق استدعاه ذات ليلة في نصف الليل، فهالني ذلك وأفزعني لما كنت أعرفه عنه من شراسة الأخلاق وشدة الإسراع في القتل، وخفت أن يكون قد نقم عليَّ شيئاً أو بُلِّغ عني باطلاً.

فخرجت مسرعاً طائراً حتى أتيت داره، فأُدخلت

إلى بعض دور حريمه، فاشتد جزعي حين رأيته في حجرة لطيفة، جالساً على كرسيه، وبيده سيف مسلول، وهو مطرق الفكر، فأيقنت القتل.

وسمعت في الدهليز بكاء امرأة، فسلمت ووقفت، فرفع رأسه، وقال: اجلس، قال: فجلست، ورمى إليَّ رقاعاً كانت بين يديه، وقال: اقرأ هذه، فقرأت جميعها فإذا هي من أصحاب الشرط يخبره كل واحد منهم بما جرى له في يومه، وفي جميعها ذكر كبسات وقعت على نساء من بنات الوزراء والأجلاء الذين ماتوا وجدن على فساد، يستأذنون في أمرهن، فقال: ويحك يا أبا عبيدة، هؤلاء الناس الذين ورد ذكر حال بناتهم كلهم كانوا أجل مني أو مثلي، وقد أفضى بهم الحال إلى ما ترى، وقد وقع لي أن بناتي بعدي سيبلغن هذا المبلغ، وقد جمعتهن وهن خمس في هذه الحجرة لأقتلهن الساعة وأستريح، ثم أدركتني رقة البشرية والخوف من الله تعالى فأردت أن أُشارَك إمضاء الرأي، أَوَ شيء تشير به علي؟

فقلت: أصلح الله الأمير، إن آباء هؤلاء النسوة التي وجدن في الفساد أخطأوا في تدبيرهن، لأنهم خلفوا لهن

النعم ولم يحفظوهن بالأزواج، فخلون بأنفسهن ونعمهن ففسدن.

والذي أرى أن تستدعي فلاناً القائد فإن له خمسة من البنين، كلهم جميل الوجه، حسن اللبس، فتزوج كل واحدة من بناتك واحداً منهم فتُكفى العار والنار، وتكون قد أخذت بأمر الله عزوجل والحزم، ويراك الله وقد أردت طاعته في حفظهن فيحفظك فيهن.

فقال: امض الساعة إليه، فقرر معه ما يكون لنا فيه المصلحة، وافرغ لي معه من هذا الأمر.

قال: فمضيت إلى الرجل، وقررت الأمر معه، وأخذت الفتيان وأباهم وجئت إلى دار إسحاق، وعقدت النكاح لكل واحد منهم على بنات إسحاق، وجعل إسحاق لكل واحد منهم خمسة آلاف دينار، وشيئاً كثيراً من الطيب والثياب، وحمل كلاً منهم على فرس)[١].

ولا يهم في هذه القصة صحتها، كما لا يهم خطأ ما

---

(١) نقلتها باختصار من كتاب الفرج بعد الشدة، لإبراهيم ابن عبدالله الحازمي: ١/ ١٦٢.

أراد الأمير من قتل بناته، وإنما المهم ما ظن بنفسه من الوقوع فيما وقع فيه غيره، والخوف الشديد على بناته من الوقوع في الفساد، فطار عقله وأراد الإقدام على تلك الحماقة لولا ما يسر الله من الناصح العاقل، فلم يأنف أن طلب لبناته الأزواج، ودفع المال من عنده لهم؛ لأنه يعرف أنه يفعل ذلك صيانة لبناته، فهل حملت أنت يا أيها المسلم همّ بناتك كما حمله إسحاق؟؟

هل تستطيع الاحتساب؟

إن المنكر طالما استتر به صاحبه فإنه لا يضر غيره، وأما إذا فشا وجاهر به أصحابه واستعلن به الفسقة، فإن الحال هنا يستوجب قيام أهل الصلاح بالاحتساب عليهم، أي إقامة فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تلك الفريضة الغائبة التي فضلت بها هذه الأمة.

قال تعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1].

وقد أمر الله أن تتفرغ طائفة للقيام بهذه الفريضة فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١١٠).

وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[١].

وقد توعد النبي ﷺ هذه الأمة بأشد العقوبات إذا هي تخلت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه قوله ﷺ:

«لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله عز وجل ويتحروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم»[٢].

وقوله ﷺ:

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٠٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه في الفتن، باب العقوبات، والحاكم: ٤/٥٤٠، وغيرهما عن ابن عمر، وصححه الألباني في الصحيحة، ح ١٠٦.

«ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي هم أعز وأكثر ممن يعمله ثم لم يغيروه إلا عمهم الله تعالى منه بعقاب»[١].

وقال ﷺ:

«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطيع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[٢].

فالبشرى كل البشرى لأهل الحسبة، فبهم تحفظ البلاد، وينعم بالخير العباد، وهم جبهة المسلمين في وجه أهل الشر والفساد، الذين لا يرجون لله وقاراً، ولا يخافون منه عقاباً.

فإن كنت من أهل الحسبة فتعلم أحكامها وآدابها،

---

(١) أخرجه أحمد: ٤/ ٣٦٤، وأبو داود في الملاحم، باب الأمر والنهي، وابن ماجه في الفتن، باب الأمر بالمعروف عن جرير، والترمذي في الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر، عن أبي بكر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وقم بها لله تعالى خالصة من دون الناس، ولا يخالط نيتك التعالي على أهل المنكر، واحذر من الكبر، وإذا رأيت مبتلى فاحمد الله، واستعذ من حاله، وإياك من كشف المستور، ولا يكن همك الانتقام لنفسك، ولا معرفة دواخل الناس.

وقد كان أعلام السلف الصالح أهل احتساب وإنكار للمنكر، يقومون بذلك على من فعل المنكر أياً كان موضعه ومنصبه، ومن أشهرهم بعد الصحابة أبوحازم، والحسن، وسعيد بن جبير، والعز بن عبدالسلام، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وغيرهم كثير.

إنك حين تنكر منكراً إنما تظهر ثلاثة دوافع نفسية تفجر فيك القوة لإنكار المنكر:

أولها: محبة الله تعالى فوق محبة غيره، والغيرة على محارمه أن تنتهك.

وثانيها: خوفك من الله فوق خوف المخلوق.

وثالثها: حرصك الشديد، وحبك لمجتمعك، وخوفك أن تنتشر فيه الرذيلة.

ولذلك كان المحتسب في الحقيقة جديراً بأعلى مراتب الإيمان، فمن كمل فيه خوف الله ومحبته فذلك المبرز حقاً.

إن إنكار المنكر ليس نصيحة خاصة تقدمها لمسلم، كلا بل هو موعظة عامة تحيي به قلوباً كثيرة، وأقل ما هنالك أن المنكر إذا استُعلن به ولم ينكر تحول إلى معروف، وفي هذا تطور خطير في اتجاه تحليل الحرام.

وإذا أنكره المحتسب وجَّه رسالة قوية إلى صاحب المنكر أن المجتمع لن يسمح لك بأن تثقب السفينة، فإن كنت لا بد فاعلاً فاستتر بستر الله، فإن الذنب حينئذ يصبح شأنك وحدك.

هذا هو ما يعبر عنه بالسخط الاجتماعي، وهو من أشد أدوات الردع التربوي الذي فقدناه للأسف الشديد حتى من العاملين في الدعوة بحجج واهية، والبعض يغمض عينيه عن المنكر حتى لا يراه فيجب عليه الإنكار، وهي الحماقة بعينها.

إن تجاهلك للمنكر لن يغير من الواقع المر الذي

نعيشه، ولن يغير من تكليفك بواجب الاحتساب، وتذكر دائماً أن الله تعالى أحق بالخشية والحياء من المخلوق، أقول هذا حتى لا يظن ظان أن الاحتساب أمر مستحب، بل مقصودنا هو التفرغ للاحتساب، أو العمل في هيئات الحسبة، وأما الحد الأدنى من الاحتساب فهو واجب على كل مسلم عاين أو حضر المنكر، فالحسبة مسؤولية الجميع!

إذن لعلك من أسود الله؟

ولك رغبة وطموح في منازل عالية، وأمنيات غالية، ودرجات سامية: منازل الشهداء، بلغنا الله إياها، فهنيئاً لك والله على هذه النفس.

إن تقلبنا في هذه الأيام في الدنيا، واختلاط أنفسنا بها، وتملق أرواحنا لها كبَّل منا النفوس، وقعد بنا عن معالي الأمور، وأصبحنا نتطلع إلى سفاسف ودونيات ما كان شأن المؤمنين بها لولا الوهن: حب الدنيا وكراهية الموت.

الشهيد ذلك اللقب السامي، والمنار العالي الذي شرفت به الأمة، وتبوأت به مناصب العز والرفعة طول أيامها، لقد جاء في الشهيد من الله كرامات تدمع لها العيون فرحاً وأملاً، وتبكي لها القلوب شوقاً ورغباً.

قال تعالى:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(١).

الشهيد هو صاحب الصفقة والبيعة مع الله تعالى، الشهداء هم الذين بايعهم الله فأخذ منهم وأعطاهم:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾(٢).

وحدَّث المقداد بن معدي كرب رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٦٩ ـ ١٧٠).

(٢) سورة التوبة: الآية (١١١).

«للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه»[١].

وقال ﷺ:

«الشهداء على بارق نهر بباب الجنة، في قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً»[٢].

وقال أيضاً:

«الشهداء الذين يقاتلون في سبيل الله في الصف الأول، ولا يلتفتون بوجوههم حتى يقتلوا، فأولئك يلقون

---

(١) أخرجه أحمد: ٤/ ١٣١، والترمذي في فضائل الجهاد، باب ثواب الشهيد، وابن ماجه في الجهاد، باب فضل الشهادة في سبيل الله، وصححه الألباني في أحكام الجنائز، ص ٣٥.

(٢) أخرجه أحمد: ١/ ٢٦٦، والطبراني، ح ١٠٨٢٥، والحاكم: ٢/ ٧٤، وابن حبان، ح ٤٦٥٨، وذكره الألباني في صحيح الجامع، ح ٣٧٤٢.

في الغرف العلا من الجنة، يضحك إليهم ربك، إن الله تعالى إذا ضحك إلى عبده المؤمن فلا حساب عليه»[(١)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ:

«ما من مكلوم يكلم في الله إلا جاء يوم القيامة وكلمه يدمي، اللون لون دم، والريح ريح مسك»[(٢)] .

فعليك بالجهاد في سبيل الله في أي راية للجهاد ترتفع، وفي أي موطن تسنح الفرصة فيه لإقامة جهاد شرعي، فالجهاد هو أسرع طريق إلى الجنة جعلنا الله من أهلها.

المجاهدون كثير، أولئك الذي سطروا للتاريخ بدمائهم أروع قصص التضحية والفدائية، الذين قدموا أغلى ما يمكلون لأحب من يحبون، وفي سبيل رضاه

---

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب: ٢/ ١٩٣، وأحمد في المسند: ٨/ ٣٤٣، ح ٢٢٥٣٩، بلفظ مقارب، عن نعيم ابن هبار، وانظر صحيح الجامع، ح ٣٧٤٠.

(٢) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد، باب المسك، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

يَقتُلون ويُقتَلون.

ومنهم عبدالله بن عمرو بن حرام، الصحابي الجليل، الذي كلمه الله كفاحاً بلا ترجمان، روى الطبري عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه، قال: قال لي رسول الله ﷺ:

«ألا أبشرك يا جابر؟ قال: قلت: بلى يا رسول الله، قال: إن أباك حيث أصيب بأحد أحياه الله، ثم قال له: ما تحب يا عبدالله بن عمرو أن أفعل بك؟ قال: يا رب أحب أن تردني إلى الدنيا فأُقاتل فيك فأُقتل مرة أخرى»[1].

ومنهم الإمام، السيد، المجاهد، الأمير، الصحابي الجليل، خالد بن الوليد، فارس الإسلام، وليث المشاهد، وقائد المجاهدين.

قال عنه رسول الله ﷺ:

«خالد سيف صبه أو سله الله على الكفار».

وكان رضي الله عنه يقول عن نفسه:

---

(١) تفسير الطبري: ٣/ ٥١٤.

ما من ليلة يهدى إليّ فيها عروس أنا لها محب، أحب إليّ من ليلة شديدة البرد كثيرة الجليد في سرية أصبح بها العدو.

وكان يقول أيضاً:

ما أدري من أي يوميَّ أفر، يوم أراد الله أن يهدي لي فيه شهادة، أو يوم أراد الله أن يهدي لي فيه كرامة.

وقال قيس بن حازم:

سمعت خالداً يقول: منعني الجهاد كثيراً من القراءة.

وقالوا له مرة:

احذر الأعاجم لا تسقيك السم، فقال: ائتوني به، فأتي به، فقال: بسم الله، وشربه، فلم يضره.

ولما حضره الموت بكى، وقال:

لقيت كذا وكذا زحفاً، وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسيف، أو رمية بسهم، وها أنا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء[١].

---

(١) انظر ترجمته في السير: ١/ ٣٦٦.

وأعبُر طيات الزمان، وأطير من بدء التاريخ لأذكر بجهاد القرن الرابع عشر، ضد القوة الثانية على الأرض، وهو الجهاد في أفغانستان، يوم اشترك جميع المسلمين في حرب دولة الكفر، فقهروها وأذاقوها مُرَّ الهزيمة وعلقم الخيبة، وسطرت دماء الشهداء أروع ملاحم التاريخ الجهادي، وكانت أفتك أنواع الأسلحة والخطط العسكرية تتلاشى أمام قوة الجهاد الإسلامي.

لقد برهنت تلك السنين الجهادية أن الأمة ما زالت بخير، وأنها فقط تتلمس القيادات التي ترفع رايات الجهاد، وتفرض الإسلام بالقوة في عزة المسلم، لا أن تعرضه كأنه بضاعة منتهية الصلاحية يستميت صاحبها في إثبات أنها ما زالت صالحة للاستهلاك!

لقد رأينا أيضاً كيف فعلت القلة المؤمنة بالصليبية الحاقدة في البوسنة، وكيف تنادت أقطار الكفر كلها لوضع اتفاقية السلام خوفاً من نمو الحركة الجهادية في وسط أوروبا، وهذا يعني لهم زلزلة العرش الصليبي بل زواله.

لقد اشتاقت الأمة لك يا خالد.. لقد اشتاقت الأمة لك يا صلاح الدين.. لقد اشتاقت الأمة لكم أيها الأسياد الأمراء.. أيها الكبراء.. أما من عودة لها لتفكوا إسارها وتعيدوا لها مجدها، وترفعوا من خسيستها في عصر قل فيه من يقول: ها أنا ذا!!

هل أنت موظف في مصلحة عامة؟

إن كنت أخي موظفاً أو عاملاً في مصلحة عامة من مصالح المسلمين فاعلم أن القيام على مصالح المسلمين العامة فيه أجر كبير من الله تعالى إذا أحسن المؤمن النية واحتسب الأجر من الله تعالى، ولو كان يأخذ على عمله هذا أجراً وراتباً من الدولة، فسواء كنت جندياً في الجيش مرابطاً على الثغور، أو شرطياً تقوم على حراسة المسلمين، أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، أو كنت من رجال الجمارك، أو الجوازات، أو حرس الحدود، أو خفر السواحل، قائم على حراسة حدود البلاد من تسرب المحرمات والمجرمين وكل ما يقلق الأمن ويهز الطمأنينة في نفوس الناس، فأنت على ثغرة عظيمة يجب أن تحتسب الأجر فيها على الله تعالى.

لا تتعامل مع وظيفتك هذه على أنها عمل دنيوي لا

أجر فيه، فيكون ذلك مدعاة للقصور وضياع الوقت بلا فائدة.

بل اجعله طاعة تتقرب بها إلى الله تعالى، فإن ذلك باب عظيم من أبواب الأجر من الله، فكل لحظة تمر عليك في عملك هذا أنت مأجور عليها، ثم إنه حافز للعطاء والرقي؛ لأنك حينئذ تحس بأن الله تعالى هو الرقيب الحسيب؛ إذ أنك تريد وجهه تعالى، فلا يهم حينئذ لو غاب رئيسك في العمل أو مديرك؛ لأنك أصلاً تراقب من لا يغيب عنك ولا تغيب عنه لحظة واحدة وهو الله جل وتقدس.

قال ﷺ:

«عينان لا تمسهما النار أبداً: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله، وله شواهد من حديث أنس وأبي هريرة وأبي ريحانة وغيرهم، وصححه الألباني في صحيح الجامع، ح٤١١٣.

وكذلك إن كنت موظفاً في الأمور المدنية التي تختص بحاجات الناس كالبلديات، والأحوال المدنية، وكذلك الحقوق، ومصلحة المياه، والضمان الاجتماعي، أو أي مصلحة من مصالح الدولة، لا تظن أنك في عمل عادي أبداً والذي خلقك وبرأك، إنك لعلى شفير هاوية، إما أن تكون وظيفتك هذه فكاكك من النار، أو تكون أغلالاً تجر بها إليها، فإن أنت احتسبت الأجر من الله تعالى في قضاء حوائج المسلمين، ويسرت عليهم أمورهم ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وسارعت إلى تقدير ظروف بعضهم كالمرأة والكبير والمسافر الذي قدم من مكان بعيد، فقد استوجبت من الله الأجر، وقد يكون دعاء الناس لك هو جواز مرورك إلى الجنة.

وأما إن كان ديدنك التعالي على الناس وتعسير أمورهم، فلا ترحم امرأة، ولا تقدر شيخاً، ولا تعذر سفيهاً، وتماطل في إنجاز معاملاتهم، وتؤخر ما لا يستحق فاعلم أنك تعرضت لباب كبير من الشر، وجعلت من نفسك غرضاً وهدفاً لدعوات من الناس قد لا تبقي عليك ولا تذر.

والجزاء من جنس العمل، قال ﷺ:

«اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به»[١].

(١) أخرجه مسلم في الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، عن عائشة رضي الله عنها.

هل أنت عاجز عن كل ما تقدم؟

إن كنت عاجزاً كل ما تقدم فلا بأس، هناك بقية، كُفَّ أذاك عن الناس، قال ﷺ:

«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[١].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال:

«قلت: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: الإيمان بالله، والجهاد في سبيله، قال: قلت: أي الرقاب أفضل؟ قال: أنفسها عند أهلها، وأكثرها ثمناً، قال: قلت: فإن لم أفعل؟ قال: تعين صانعاً، أو تصنع لأخرق، قال: قلت: يا رسول الله، أرأيت إن ضعفت عن

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، ومسلم في الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام، عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

بعض العمل؟ قال: تكف شرك عن الناس، فإنها صدقة منك على نفسك»[١].

وفي مسند الإمام أحمد، عن أبي هريرة:

«أن رجلاً سأل النبي ﷺ: أي العمل أفضل؟ فقال: الإيمان بالله، والجهاد في سبيله، قال: فإن لم أستطع ذاك؟ فأي الرقاب أعظم أجراً؟ قال: أغلاها ثمناً، وأنفسها عند أهلها، قال: فإن لم أستطع؟ قال: فتعين صانعاً، أو تصنع لأخرق، قال: فإن لم أستطع ذاك؟ قال: فاحبس نفسك عن الشر، فإنها صدقة حسنة تصدقت بها على نفسك»[٢].

وأنواع الأذى الذي يضر المسلمين كثيرة، وأذكر لك أشهر ما يقع العبد فيه في ليله ونهاره:

١ - **الاعتداء الجسدي:** بقتل أو جرح أو ضرب وغير ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في العتق، باب أي الرقاب أفضل، ومسلم في الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله أفضل الأعمال، وهذا لفظه.
(٢) المسند: ٢/ ٣٨٨.

فأما القتل ففيه ذلك الوعيد العظيم من الله تعالى:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت نبيكم ﷺ يقول:

«يجيء [المقتول] متعلقاً بالقاتل تشخب أوداجه دماً فيقول: أي رب، سل هذا فيم قتلني»[2].

ومن ذلك القتل في الهرج والفتن والرايات العمية، لا يدري القاتل فيم قَتل، ولا المقتول فيم قُتل، فقد جاء عنه ﷺ:

«إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قالوا: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»[3].

---

(١) سورة النساء: الآية (٩٣).

(٢) جزء من حديث أخرجه النسائي، كتاب تحريم القتل، باب تعظيم الدم، ح ٣٩٩٩.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان، باب ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ =

وسائر أنواع الاعتداء الأخرى كذلك.

٢ ـ ومن ذلك أكل أموال الغير بالباطل: كمن يستأجر أجيراً (خادماً أو سائقاً أو بائعاً ونحو ذلك) ولا يؤدي له كل حقه، فقد صح عنه ﷺ أنه قال:

«قال الله: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، ومن كنت خصمه خصمته: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره»[1].

أو أخذ أموال ناس دَيناً ولا ينوي ردها، وقد قال ﷺ:

«من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله»[2].

= ﴿ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾، ومسلم في القسامة، باب صحة الإقرار.

(١) أخرجه البخاري في البيوع، باب إثم من باع حراً، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الاستقراض، باب من أخذ أموال الناس يريد أداءها، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وكذلك عدم الوفاء بشروط العقود سواء كانت استصناعاً أو مزارعة أو غير ذلك، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾(١).

أو الأخذ من أموال صاحب المال خلسة، أو استعمال أمواله بدون إذنه من قبل العامل، فإن المال أمانة عنده، وهذا من الخيانة.

ومنه تعطيل مصالح المسلمين إلا برشوة أو عوض مالي أو معنوي.

ومنه الغش والتدليس في البضائع والسلع، قال ﷺ:

«**من غش فليس مني**»(٢).

ومنه استغلال الفقراء والمساكين والمحتاجين ببيع الآجل المضاعف أضعافاً كثيرة تتنافى مع أدنى حقوق الأخوة الإسلامية، قال ﷺ:

---

(١) سورة المائدة: الآية (١).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، باب قول النبي ﷺ «من غشنا فليس منا»، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

«رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا اقتضى»[١].

وأول ما يقضى فيه يوم القيامة الدماء[٢]، ثم ما دونها، ولا يدخل عبد الجنة أو النار حتى يقتص منه لمن ظلمهم، ويوم القيامة لا درهم ولا دينار، إنما الحسنات والسيئات، قال ﷺ:

«أتدرون ما المفلس؟ إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته، قبل أن أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع، باب السماحة والسهولة في البيع وفي الشراء، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، باب القصاص يوم القيامة، ومسلم في القسامة، باب المجازاة بالدماء في الآخرة، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب تحريم الظلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٣ ـ ومن أنواع الأذى الوقوع في غيبة المسلم، وهي من كبائر الذنوب، قال تعالى:

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ﴾[(١)].

وقال ﷺ:

«أتدرون ما الغيبة، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهتّه»[(٢)].

٤ ـ ومن أنواع الأذى بل هو من أشدها أذى الجار، سواء في المنزل أو المدرسة أو العمل، فإن النبي ﷺ يقول:

«ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه»[(٣)].

---

(١) سورة الحجرات: الآية (١٢).

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب تحريم الغيبة، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب الوصاة بالجار، ومسلم في =

وقال ﷺ:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره»[١].

وقال تعالى:

﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ ﴾[٢]

وأذى الجار أشكال وأنواع، فذكره بما يكره، والوقوع في عِرضه، والاعتداء عليه أو على أهله، كذلك رمي القاذورات أمام بابه، أو التجسس عليه والتطلع إلى عوراته وأهله، بل حتى عدم تفقد الجار، وعدم الالتفات إلى حاجته مع الاستطاعة هو من علامات ضعف الإيمان ومدعاة سخط الله، قال ﷺ:

= البر والصلة، باب الوصية بالجار، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره»، ومسلم في الإيمان، باب الحث على إكرام الجار، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سورة النساء: الآية (٣٦).

«لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه»[١].

ومن أشد أنواع الأذى التعرض لنساء الجيران، فقد صح عنه ﷺ أنه قيل له:

«أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قلت: ثم أي؟ قال: تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني بحليلة جارك»[٢].

ولا يحقرن المسلم شيئاً من المعروف يؤديه لجاره، وكان ﷺ يوصي أبا ذر رضي الله عنه إذا طبخ لحماً أن يكثر من المرقة ويتعاهد جيرانه[٣]، ويدخل في الأذى أن يستعرض الجار ذي الغنى بغناه أمام جاره الفقير، وقد قال ﷺ:

«لا يشبع الرجل دون جاره»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان تحريم أذى الجار، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾، عن عبدالله بن مسعود.
(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب الوصية بالجار.
(٤) أخرجه أحمد: ١/٥٥.

٥ ـ **ومن أنواع الأذى تتبع عورة المسلم:** وقد قال ﷺ:

«يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته»[١].

٦ ـ **ومن أنواع الأذى النميمة:** وهي نقل الكلام بين الناس لغرض الإفساد، وهي أشد من الغيبة، حتى إن النبي ﷺ سماها الحالقة، فقال:

«ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة، قالوا: بلى، قال: صلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة.. لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدِين»[٢].

ومرَّ النبي ﷺ بقبرين يعذبان من قبور المسلمين فقال:

---

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في تعظيم المؤمن.

(٢) أخرجه أبوداود في الأدب، باب إصلاح ذات البين، والترمذي في القيامة، باب ٥٦، وأحمد: ١/ ٢٧٤.

«أما إنهما يعذبان، وما يعذبان في كبير، بلى إنه لكبير، أما أحدهما فكان لا يستنزه من بوله، وأما الآخر فكان يمشي بين الناس بالنميمة»(١).

٧ - ومن أنواع الأذى: السخرية والاستهزاء أو الانتقاص من المسلم: قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(٢)؛ إذ المسلمون سواسية، ولا فرق بين عربي ولا عجمي، ولا أبيض ولا أسود إلا بالتقوى:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء، باب من الكبائر أن لا يستتر من بوله، ومسلم في الإيمان، باب الدليل على نجاسة البول، عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) سورة الحجرات: الآية (١١).
(٣) سورة الحجرات: الآية (١٣).

وقال ﷺ:

«المسلمون تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم»[(١)].

وتنقص الناس هو من الكبر المذموم، قال ﷺ:

«لا يدخل الجنة من كان في قلبه ذرة من كبر، قال رجل: يا رسول الله، إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً، قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»[(٢)].

٨ ـ ومن أنواع الأذى الخيانة والغدر، وقد قال ﷺ:

«أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منها كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا

---

(١) أخرجه أبوداود في الجهاد، باب في السرية ترد على أهل العسكر، والنسائي في القسامة، باب سقوط القود من المسلم، وابن ماجه في الديات، باب المسلمون تتكافأ دماؤهم، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

اؤتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[١].

٩ - ومن أنواع الأذى خطبة الرجل على خطبة أخيه، أو بيعه على بيعه، فإن هذا من أسباب العداوة والشحناء التي نهى عنها النبي ﷺ:

«لا يخطِب الرجل على خِطبة أخيه، ولا يبع على بيعه»[٢].

فلا يجوز للرجل أن يتقدم لخطبة امرأة مخطوبة حتى يتأكد له أن الخاطب الأول قد فسخ الخطبة، أو أن يرده أهل المرأة، ومثله البيع سواء بسواء.

ويدخل في ذلك سائر أنواع المداخلات كالوظائف والفرص الدراسية.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب علامة المنافق، ومسلم في الإيمان، باب بيان خصال المنافق، عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢). أخرجه البخاري في البيوع، باب لا يبيع على بيع أخيه، ومسلم في النكاح، باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها في النكاح، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

١٠ ـ ومن أنواع الأذى: التعرض للنساء في الطرقات والأسواق وكافة أماكن وجودهن، وهذا والله من الخصال الدنيئة، التي اعتادها كثير من أبناء هذا الزمان، ولعمرو الله إن فاعل ذلك غالباً ما يبتلى في أهله، فإن الزنا ومقدماته دَين، وقصص من ابتلاهم الله وعاقبهم في أعراضهم معروفة مشهورة، وهو داخل في تتبع عورة المسلم، فضلاً عن العقوبة في الآخرة.

١١ ـ ومن أنواع الأذى الجلوس في الطرقات وتضييقها على أهلها، أو سدها دون وجه حق، سواء بالسيارات أو بالأبدان.

ويدخل في ذلك بل هو أشد: التلاعب بالسيارات بالتفحيط، وتجاوز الإشارات المرورية ونحوه؛ لأن في ذلك فضلاً عن الإسراف تعريض حياة وأملاك الآخرين للخطر المحتم.

قال ﷺ:

«إياكم والجلوس في الطرقات، قالوا: يا رسول الله، ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها، قال رسول الله

ﷺ: فإذا أبيتم فأعطوا الطريق حقه، قالوا: وما حقه؟ قال: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر»[١].

١٢ـ ومن أشد أنواع الأذى المعاكسات: أقصد تلك التي يستمتع أصحابها بإزعاج أصحاب المنازل، سواء بعدم التحدث إذا رفع سماعة الهاتف، أو بالسب والاستفزاز، وهذا الفعل مأثمة عظيمة لا يدري صاحبها عظمها إلا إذا أنزل الله به عقوبة عاجلة، استجابة لدعاء مظلوم أقضّ مضجعه وأسهر ليله.

أجمل شعور يشعر به مؤمن أن يبيت وهو مطمئن البال أن ليس لأحد من الخلق له عنده حق.

إنك لتعجب كل العجب أن يسهر العبد ليله مهموماً يفكر في دَينه، وماذا عساه يقول لأصحاب الحقوق إذا طالبوه؟ ثم هو لا يبالي بأصحاب الحقوق المعنوية الذين ربما كان دينهم أشد وأنكى وأعظم، وأدعى لسهر الليالي

(١) أخرجه مسلم في اللباس والزينة، باب النهي عن الجلوس في الطرقات، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

ومكابدة الهموم.

دَين الذي شتمته، أو الذي انتهكت عرضه، أو الذي لمزته، أو سخرت منه، أو اغتبته، أو هدمت بيته بكلمة منك، أو ضربته، أو قتلته، أتظن هذه الحقوق ليس لها مطالب؟ وتظن أن أصحابها تاركيها؟

كلا، أمَّا أصحابها فإنهم إن لم يعلموا بها اليوم فإن لهم من يذكرهم يوم القيامة، يوم نشر الدواوين، ويكون الجزاء جنة أو ناراً، والحساب لا درهم ولا دينار، إنما الحسنات والسيئات.

وأمّا الجبار تعالى ذكره فقد توعد باستيفاء الحقوق لأصحابها، فوالله لا تطأ قدمك الجنة إن كنت من أهلها قبل أن يقتص لمن ظلمتهم، ولو كانوا كفاراً من أهل النار فكيف بالمسلمين؟

نعم، هذا هو الديوان الذي لا يغادره الله، أو لا يتركه الله، أنت عنه اليوم لاه؛ لأن ليس له طالب، ولا له من يأخذ به، غير أنه غداً له من الله طالب، والمتمسك بحقه يوم القيامة كثير، فهل رددت لأصحاب الحقوق حقوقهم؟

وهل طلبت العفو من كل من ظلمتهم؟

وهل تستطيع أن تبات ليلتك مطمئناً أن ليس لأحد من الناس عندك حق؟

إن استطعت فافعل.

ربٌ غفورٌ رحيم

وقد يكون لك أخي كثير من الذنوب التي قد تقعدك عن الخير، ويجعلها الشيطان مدخلاً لتثبيطك عن الخير، فإياك والشيطان، إن مداخل الجنة كثيرة كما سبق بعضها، فاجتهد أن تدخلها من أيسر السبل عليك وأحبها لديك.

وأما تلك الذنوب فاجتهد أن لا يراك الله تعصيه، فإن فعلت، فعليك بثلاثة:

الأول: عدم الإصرار، فإن الإصرار يصير الصغيرة كبيرة، والله عزوجل امتدح من هذا حالهم فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[١].

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٣٥).

الثاني: التوبة والاستغفار كلما وقعت في معصية، ولو تكررت، فلا تجعل تكرارها مانعاً من تجديد التوبة، فقد صح عنه ﷺ:

«أن رجلاً أذنب ذنباً فقال: أي رب أذنبت ذنباً فاغفر لي، فقال: عبدي أذنب ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم أذنب ذنباً آخر، فقال: رب إني عملت ذنباً فاغفر لي، فقال: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر، فقال: رب إني عملت ذنباً آخر فاغفر لي، فقال الله تعالى: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، أشهدكم أني قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء»[1].

بل صح عنه ﷺ أنه قال:

«ما من عبد مؤمن إلا وله ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة، أو ذنب هو مقيم عليه لا يفارقه حتى يفارق

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾، ومسلم في التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة.

الدنيا، إن المؤمن خلق مفتناً تواباً نساء، إذا ذُكِّر ذَكَر»[١].

الثالث: الاستسرار بالمعصية، فإن بعض الناس يأتيه الشيطان من مدخل الإخلاص، فيقول له: وهل أنت تخاف من الله أم من الناس؟ ويحسِّن له فعل المعصية جهاراً، وهذا من حيل إبليس لعنه الله.

فإن العبد إذا فعل المعصية أمام الناس فقد تجرأ على الله، هذا أولاً.

وثانياً: هتك ستر نفسه، والله يحب الستر.

وثالثاً: أنه يغلق على نفسه باب التوبة، فإن الشيطان يأتي إلى المجاهر فيخجله من التوبة، ويقول له: ماذا يقول عنك الناس؟ هل الدين لعبة بيدك، يوم صالح، ويوم طالح؟ سيقول الناس: إنك منافق؟ أنت الذي كنت بين الكأس والطار تصبح بين لحظة وأخرى تدَّعي التديُّن؟ وهكذا يستمر به حتى يهلك العبد.

---

(١) أخرجه الطبراني، ح ١١٨١٠، عن ابن عباس، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ح ٢٢٧٦.

وأما الاستسرار فلا يعلم عنك أحد إلا الله، تعصيه فيسترك، وتستغفر فيغفر لك، وصدق رسول الله ﷺ:

«كل أمتي معافى إلا المجاهرون»[١].

ثم إياك أن يدب اليأس إلى قلبك، واعلم أن لكل جواد كبوة، ولكل فارس سقوط، والموفَّق من يجعل من سقوطه دفعة إلى النجاة، والعودة إلى المضمار، أكثرَ جدية، وقوة، وإصراراً على التعويض والزيادة.

وقد تساءل ابن القيم رحمه الله: هل يستطيع العبد أن يعود بعد التوبة إلى ما كان عليه من الإيمان أم لا؟

وبعد أن حكى الخلاف فيها قال:

(وسمعت شيخ الإسلام رحمه الله يحكي هذا الخلاف، ثم قال: والصحيح أن من التائبين من لا يعود إلى درجته، ومنهم من يعود إليها، ومنهم من يعود إلى أعلى منها فيصير بعد الذنب خيراً مما كان قبله.

قال: وهذا بحسب حال التائب بعد توبته، وجِدِّه

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه.

وعزمه وحذره وتشميره، فإن كان ذلك أعظم مما كان له قبل الذنب عاد خيراً مما كان وأعلى درجة.

وإن كان مثله عاد إلى مثل حاله، وإن كان دونه لم يعد إلى درجته وكان منحطاً عنها، وهذا الذي ذكره هو فصل النزاع في المسألة)[١].

بل قال كثير من السلف: إن التائب توبة نصوحاً خير من الذي لم يعص، وفيه خلاف ذكره ابن القيم[٢].

وحكى عن بعض السلف قوله:

(قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة، وقد يعمل الطاعة فيدخل بها النار، قالوا: كيف ذلك؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه إن قام، وإن قعد، وإن مشى ذكر ذنبه، فيحدث له انكساراً وتوبة واستغفاراً وندماً، ويكون ذلك سبباً لنجاته. ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه إن قام، وإن مشى، كلما ذكرها أورثته عجباً وكبراً ومنة، فتكون سبباً لهلاكه)[٣].

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ٣١٨.
(٢) المرجع السابق: ١/ ٣٢٠ ـ ٣٣١.
(٣) المرجع السابق: ١/ ٣٢٥.

والمطلوب في كل ذلك الموازنة بين الخوف والرجاء، خوف بلا قنوط من رحمة الله، ورجاء بلا أمن من مكر الله.

(واعلم أن الله تعالى يدفع عقوبة جهنم عن العبد بأسباب عشرة:

الأول: التوبة: فإنها تجبُّ الذنوب، وسبب عظيم للنجاة من النار.

قال تعالى:

﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾[1].

وقال سبحانه وتعالى:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾[2]، والتوبة النصوح هي الخالصة.

الثاني: الاستغفار: قال الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[3].

---

(١) سورة مريم: الآية (٦٠).
(٢) سورة البقرة: الآية (١٦٠).
(٣) سورة الأنفال: الآية (٣٣).

والاستغفار تارة يذكر وحده، وتارة يذكر مع التوبة، فإذا ذكر أحدهما دخل فيه الآخر، وإذا ذكرا سوية فالاستغفار طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.

الثالث: الحسنات: فإن الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها، فالويل لمن غلبت آحاده أعشاره.

قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[1].

وقال ﷺ:

«وأتبع السيئة الحسنة تمحها»[2].

الرابع: المصائب الدنيوية: قال ﷺ:

«ما يصيب المؤمن من وصب، ولا نصب، ولا غم، ولا هم، ولا حزن، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر بها

---

(١) سورة هود: الآية (١١٤).

(٢) أخرجه أحمد: ٥/١٥٣، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس.

من خطاياه»(١).

الخامس: عذاب القبر.

السادس: دعاء المؤمنين واستغفارهم، في الحياة وبعد الممات.

السابع: ما يهدى للميت من ثواب الصدقة أو القراءة أو الحج.

الثامن: أهوال يوم القيامة وشدائده.

ما ثبت في الصحيح عنه ﷺ:

«يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة..»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، ومسلم في البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المظالم، باب قصاص المظالم، وفي الرقاق، باب القصاص يوم القيامة، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

التاسع: شفاعة الشافعين من الأنبياء، والصالحين، والأطفال الذين ماتوا قبل البلوغ، والشهداء..

العاشر: عفو أرحم الراحمين.

كما قال تعالى:

﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1].

فإن كان ممن لم يشأ الله أن يغفر له لعظم جرمه فلا بد من دخوله النار؛ ليخلص إيمانه من خبث معاصيه، فلا يبقى في النار من في قلبه ذرة من إيمان)[2].

(١) سورة النساء: الآية (٤٨).
(٢) انظر هذه الأسباب ببسط أكثر في الفتاوى لشيخ الإسلام: ٧/ ٤٨٧ ـ ٥٠١.

في النهاية!

أخي:

قد كلَّ القلم، فإن كنت قعدت بك نفسك عن كل ما تقدم، ولا تنهض همتك، ولا ينشط طموحك إلى شيء مما سبق أو مثله، فاعلم أنه:

«لا يهلك على الله إلا هالك»

والحمد لله أولاً وآخراً.

الفهرس

حفيدة الألباني

دار الأندلس الخضراء







جدة / هاتف: ٦٨١٠٥٧٧/٠٢
/ فاكس: ٦٨١٠٥٧٨/٠٢
الرياض / هاتف: ٢٤٨١٧٠٥/٠١
/ فاكس: ٢٤٨١٩٠٥/٠١
التوزيع / ٠٥٥٤٤٨١٩٠٥ - ٠٥٤٤٠٤١٠١٢

المكتبات: حي السلامة
هاتف - فاكس: ٦٨٢٥٤٠٩
حي الثغر - شارع باخشب
هاتف ٦٨١٥٠٢٧ - فاكس: ٦٨١٠٥٧٨

البريد الإلكتروني
alandalos1@gawab.com
ص.ب: ٤٢٣٤٠ جدة ٢١٥٤١